نوابغ الفكر العربي

١٦

البحتري

بقلم الدكتور أحمد أحمد بدوي

أبو تمام والمتنبي حكيمان
والشاعر البحتري
« المعري »

الطبعة الثالثة

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

البُحتُرِيّ

الفصل الأوّل

عصر البحتري

١ ـ الحياة السياسية

تمّ الأمر لبنى العباس ، وبويع السفاح بالخلافة سنة ١٣٢ هـ ، وصرف هذا الخليفة كل همه إلى تثبيت عرش الخلافة العباسية ، بأن أعمل السيف فى رقاب الباقين من بنى أمية . وغيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم أثر محمود فى إقامتها [١] .

وظلت الخلافة تنتقل من قوىّ إلى قوىّ ، حتى آ ل أمرها إلى الأمين ، الذى عمل على نقل الخلافة من ولىّ عهده : المأمون إلى ابنه : موسى ؛ فقامت بين الأخوين : الأمين ، والمأمون حروب ، انتهت بقتل الأمين ، وصعود المأمون عرش الخلافة ، فى المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة هـ [٢] (سبتمبر سنة ٨١٣ م) .

وانتهى عصر المأمون ، وقد شبت فيه ثورات فى بعض أرجاء بلاده المترامية الأطراف ، أثار بعضها العلويون ، وبعضها أنصار الأمين المقتول ، وبعضها من لم يرض عن أفعال وزيره الأول : الفضل بن سهل ، كما غلب على طريق البصرة وعاث فيها قوم من أخلاط الناس يعرفون بالزّطّ [٣] ، سير المأمون إليهم من حاربهم سنة ست ومائتين هـ [٤] . كما قامت بعض الفتن فى شمال بلاد فارس . وقد استطاع المأمون أن يخمد بعض هذه الثورات ، وأوصى ، قبل أن يموت ، أخاه

---

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ٥٣ .

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ١٢٤ وما يليها .

(٣) الزط : جيل أسود من السند إليهم تنسب الثياب الزطية . وقيل : الزط تعريب جت بالهندية ، وهم جيل من أهل الهند . وقيل : إنهم جنس من السودان والهنود . والواحد زطى ، مثل الزنج والزنجى والروم والرومى . وقيل الزط : السبابجة قوم من السند بالبصرة .

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١٠ : ٢٥٨ وتاريخ الدولة العباسية ص ٢١٨ .

المعتصم أن يقضى على باقيها . ولما مات المأمون عام ثمانية عشر ومائتين هـ (سنة ٨٣٣ م) خلفه أخوه المعتصم ، فقضى على هذه الثورات[1]، ولكنه وضع بيده البذور التى عملت على ضعف سلطان الخلفاء العباسيين واضطراب أمرهم من بعده .

ذلك أن المعتصم كان شجاعاً جسوراً يحبّ الشجعان ويعتزّ بهم ، فاستخدم الأتراك ، واستكثر منهم ، فاجتمع له منهم عدد ضخم ، نالوا الناس بالأذى فى بغداد ، فكانوا لا يتورّعون عن أن يجروا الخيول فى الأسواق ، فتدوس الضّعفاء والصبيان . وكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعض أولئك الأتراك ، فقتلوه عندما يصدم امرأة ، أو شيخاً كبيراً ، أو صبيًّا ، أو ضريراً . ثم ارتفعت الأصوات بالشكوى منهم إلى المعتصم ، فقرّ رأيه على الرحيل من بغداد مع جنده ، وبنى لهم مدينة تدعى : « سامرّا » منحوتة من « سرّ من رأى » ، وأقام معهم فيها[2] .

أخذ هؤلاء الأتراك ، وهم قوم جُفاةٌ غُلْف القلوب ، يجمعون السلطة فى أيديهم ، ويعملون على أن يكون لهم الأمر والنفوذ ، وقد لمعت يومئذ أسماء طائفة من قوّادهم كالأفشين ، وأشناس ، وإيتاخ ، ووصيف ، وهم الذين رفع المعتصم من شأنهم ، ثم أدرك خطأه فيما فعل[3] .

وثبتت قدم الأتراك ، بعد أن تبوّأ العرش هرون الواثق بن المعتصم ، عام سبعة وعشرين ومائتين هـ ، فاستخدم القائد التركىّ بغا الكبير فى إخماد ثورة الأعراب الذين عاثوا فساداً فى المدينة وما حولها[4] ، كما وكل إلى وصيف التركى أمر إخضاع الثائرين من الأكراد[5] الذين تطرّقوا إلى بلاد فارس .

صار هؤلاء الأتراك مصدر خطر يهدد سلطان الخلفاء ، بما قبضوا عليه من مقاليد السلطة ، وزاد الأمر سوءاً ما كان بين الأسرة الحاكمة من شقاق

---

(١) الكامل ٦ : ١٨١ و ١٩٤ .
(٢) مروج الذهب ٣ : ٣٤٩ .
(٣) تاريخ الأمم والملوك ١١ : ٨ .
(٤) المرجع السابق ١١ : ١٢ .
(٥) المرجع السابق ١١ : ١٨ .

وإحن[١]؛ فقد ذكروا أن الواثق غضب على أخيه : جعفر المتوكل ، ووكل عليه من يحفظه ، ويأتيه بأخباره ، فأتى المتوكّل إلى محمد بن عبد الملك بن الزيات يسأله أن يكلم الواثق ليرضى عنه ، فوقف بين يديه ، لا يكلمه ، ثم أشار إليه بالجلوس فجلس ، فلما فرغ مما بين يديه من الكتب نظر إليه ، وقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت أسأل أمير المؤمنين الرّضا عنى ؛ فقال ابن الزّيات لمن حوله : انظروا ، يغضب أخاه ، ثم يسألنى أن أسترضيه له ! ! اذهب ، فإذا صلحت رضى عنك ؛ فقام المتوكل أسفاً ، أما ابن الزيات فإنه كتب إلى الواثق : إنّ جعفراً أتانى فى زىّ المخنّثين ، له شعر بقفاه ، يسألنى أن أسأل أمير المؤمنين الرّضا عنه ؛ فكتب إليه الواثق : ابعث إليه ، فأحضره ، ومُرْ من يجزّ شعر قفاه ، فيضرب به وجهه . قال المتوكل : لما أتانى رسوله لبست ثوباً جديداً ، وأتيته ؛ رجاء أن يكون قد أتاه الرّضا عنّى ؛ فاستدعى حجاماً ، فأخذ شعرى ، ثم ضرب به وجهى[٢] . فلما مات الواثق سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ه ، وولى المتوكل الخلافة ، انتقم من ابن الزيات ، وقتله فى تنور من الحديد ، رءوس مساميره إلى داخل ، قائمة مثل رءوس المسال ، وكان ابن الزيات يعذّب الناس فيه ، أيام وزارته[٣] .

ظهر الأثر السيئ لطغيان سلطة الأتراك فى عهد المتوكل ، فقد أحسّ المتوكل بتوغل الأتراك فى الدولة ، واستئثارهم بأموال الخلافة ، وإدارتها ، وجيشها ، فأحبّ أن يقلل من نفوذهم . غير أن الأتراك قد شعروا أن قلب المتوكل متغير عليهم ، وأنه يدبر المكايد ؛ ليتخلص منهم واحداً بعد واحد ، وشاهدوا بدء ذلك فى إيتاخ الذى خادعه المتوكل حتى قتله[٤] . فخاف الأتراك على سلطانهم ، ورأوا فى رغبة الخليفة أن يجعل دمشق[٥] عاصمة خلافته بدلا من « سامرّا » نذير سوء ، فلعله أراد أن يستعين بعرب الشام عليهم ، وحدث

(١) إحن : جمع إحنة وهى الحقد .
(٢) الكامل ٧ : ١٤ .
(٣) مروج الذهب ٣ : ٣٧ .
(٤) الكامل ٧ : ١٨ .
(٥) أخبار الأمم والملوك ١١ : ٥٥ .

أن عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة ، بولاية العهد ، وهم : المنتصر ، والمعتزّ ، والمؤيد ، وقسّم البلاد بينهم ، ولكن بطانة المتوكل غيرت قلبه على ابنه : المنتصر ، وكانت تعمل على تقريب[١] المعتز ، فخاف المنتصر أن تئول الخلافة إلى المعتز دونه ، وشعر بذلك الأتراك ؛ فالتف قوّادهم حول المنتصر ، وزيّنوا له قتل أبيه ، ليصعد إلى العرش من بعده ، ونفذت المؤامرة ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧هـ[٢] (١١ ديسمبر سنة ٨٦١م) ، إذ قتل المتوكل ، ونديمه الفتح بن خاقان[٣] ، فى مجلس كان البحترى معهما فيه .

ولم يهنأ المنتصر بالخلافة بعد قتل أبيه، ولم يستقرّ على عرشها إلا أشهراً ستة ، مات بعدها بالذّبحة ، أو بورم فى معدته ، أو بمبضع مسموم[٤] ، وخضع المنتصر لإرادة الأتراك ، فدفع أخويه إلى النزول عن ولاية العهد[٥] ، حتى لا تصير إليهما الخلافة ، فيعملا على الانتقام ممن قتل أباهما .

توفى المنتصر فى الخامس من ربيع الثانى سنة ٢٤٨هـ (٧ يونية سنة ٨٦٢م) واختار قواد الأتراك أحمد بن محمد بن المعتصم خليفة ، ولقبوه بالمستعين ، وسلبوا منه كل سلطان ، وصار الأمر لبغا ووصيف التركيين ، حتى قال فى ذلك بعض الشعراء :

خليفة فى قفص ... بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له ... كما يقول الببغا

---

(١) المرجع السابق ص ٦٢ .
(٢) الكامل ٧ : ٣٧ .
(٣) الفتح بن خاقان بن أحمد (المتوفى سنة ٢٤٧هـ - ٨٦١ م) : أديب شاعر فصيح ، كان فى نهاية الفطنة والذكاء ، فارسى الأصل ، من أبناء الملوك . اتخذه المتوكل العباسى أخاً له وجعل له إمارة الشام على أن ينيب عنه وكان يقدمه على جميع أهله وولده . واجتمعت له خزانة كتب حافلة من أعظم الخزائن . وألف كتاباً سماه : « اختلاف الملوك » وكتاباً فى «الصيد والجوارح» وكتاب « الروضة والزهر » ، وقتل مع المتوكل . وهو غير الفتح بن خاقان بن محمد الكاتب والمؤرخ الإشبيلى صاحب كتاب « قلائد العقيان » فى أخبار شعراء المغرب . مات قتيلا فى مراكش سنة ٥٢٩ هـ - ١١٣٤ م بإيعاز من أمير المسلمين : على بن يوسف بن تاشفين .
(٤) أخبار الأمم والملوك ١١ : ٧٩ .
(٥) المرجع السابق ص ٧٥ .

وكان المستعين عندما تولى الخلافة أطلق يد أتامش التركىّ ، وشاهك الخادم ، فى بيوت الأموال ، وأباح لهما أن يفعلا بها ما يشاءان ، وأباح ذلك أيضاً لأمه ، فكانت الأموال التى ترد من الآفاق إنما يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة ، وما بقى بعد ذلك ينفق على العباس بن المستعين ، وكان فى حجر أتامش الذى استولى أيضاً على أمور الخلافة ، فعزّ ذلك على وصيف وبغا ، وقتلاه [١] . وأرسل المستعين إليهما ، وقال لهما : ما طلبت إليكما أن تجعلانى خليفة ، وإنما جعلتمانى أنتما وأصحابكما ، ثم تريدان أن تقتلانى [٢] ؟ ! وشبت فتنة خرج على إثرها المستعين إلى بغداد ، تاركاً «سامرّا» ، ولم يعجب الأتراك انصرافه ، فمضوا إلى السجن وأخرجوا منه المعتز ، وكان المستعين قد سجنه وأخاه ، فبايعوه بالخلافة ، وجعلوا أخاه المؤيد ولىّ عهده [٣] ، وهكذا صارت بغداد فى جانب المستعين ، وسامرّا فى جانب المعتزّ ، وهيأ كل منهما الجيوش لحرب صاحبه ، وصعد نجم المعتز ، ووجد المستعين أن الخير له فى أن يقبل خلع نفسه بشروط تضمن له الحياة [٤] . ولم يُصَب المستعين بهذه الفتن وحدها ، بل ثار فى عهده العلويون فى الكوفة وطبرستان [٥] .

لم يكد الأمر يستقرّ للمعتز فى رابع المحرّم سنة ٢٥٢ هـ (٢٥ يناير سنة ٨٦٦ م) ، حتى أراد أن يطمئن على كرسى الخلافة ، فقتل المستعين [٦] ، ليأمن من انتقاضه ، وخلع أخاه المؤيد ، ثم قتله ، لما بلغه من أن بعض الأتراك يريدون إخراجه من السجن [٧] .

ولم يصْفُ الأمر للمعتزّ طويلا ، فقد اتفقت كلمة طوائف الجند على خلعه ، عندما طالبوه بعطائهم ، فلم يجدوا عنده ولا فى بيت المال مالا ، ثم إنهم قد عاملوه عند الخلع أسوأ معاملة ، فقد دخلوا حجرته ، وجرّوا برجله إلى باب

---

(١) أخبار الأمم والملوك ١١ : ٨٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٧ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٧ .

(٥) الكامل ٧ : ٤٨ و ٤٩ .

(٦) أخبار الأمم والملوك ١١ : ١٤٧ .

(٧) أخبار الأمم والملوك ١١ : ١٤٦ .

الحجرة ، وتناولوه بالضرب بالدبابيس ، فلما خرج كان قمصيه مخرّقاً فى مواضع ، وآثار الدم على منكبه ، فأقاموه فى الشمس فى وقت شديد الحرّ ، وصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى أقيم فيه ، وأخذ بعضهم يلطمه ، وهو يتقى بيده ، وأجبروه على خلع نفسه من الخلافة ، ثم دفع إلى من يعذّبه ، ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام ، ثم جصّصوا سرداباً بالجصّ ، وأدخلوه فيه ، وأطبقوا عليه بابه ، فأصبح ميتاً[1] . وكان ذلك فى أواخر رجب وأول شعبان سنة ٢٥٥ ﻫ .

وصعد المهتدى إلى عرش الخلافة بعد المعتزّ فى ٢٧ رجب سنة ٢٥٥ ﻫ . (١١ يولية سنة ٨٦٩ م) ، ويذكر التاريخ له صفات هى صفات الخليفة العادل . فيذكر عدله وتقواه ، وكرهه للظلم ، وجلوسه للمظالم ، وإخراجه المغنين والمغنيات من «سامرّا» ، وإبطاله للملاهى[2] ، ولكن ذلك لم يغنه شيئاً أمام طوائف الجند ، فثاروا عليه ، فولى منهزماً ، وبيده السيف ، وهو ينادى : يا معشر المسلمين ، أنا أمير المؤمنين ، قاتلوا عن خليفتكم ، فلم يجبه أحد ، فسار إلى باب السجن فأطلق من فيه ، وهو يظنّ أنهم يعينونه ، فهربوا ، ولم يعنه أحد[3] ، واقتصّ الجند أثره ، وأرادوه على خلع نفسه فأبى ، فخلعوه ، بعد أحد عشر شهراً من خلافته ، وقتل فى اليوم الثانى لخلعه فى رجب سنة ٢٥٦ ﻫ . وإلى هذا الحدّ وصلت الخلافة العباسية والخلفاء العباسيون .

وأخرج المعتمد من السجن وبويع بالخلافة فى ١٦ رجب سنة ٢٥٦ ﻫ . (١٩ يونية سنة ٨٧٠ م) ، ونصّب أخوه الموفق قائداً للجيش حسماً لما بين القواد من خلاف ومنافسة ، وقد استبدّ الموفق بالأمر ، وكان رجلا ذا عزم وقوة ، يحب الإصلاح ، فترك المعتمد فى لهوه ولعبه ، فقد كان الغالب عليه الشغف بالطرب ، ومحبة أنواع اللهو والملاهى[4] ، وانفرد الموفق بالسلطان الحقيق ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧١ ، والكامل ٧ : ٩٢ .

(٣) الكامل ٧ : ٩٠و٩١ .

(٤) مروج الذهب ٣ : ٤٥٥ .

وضيق على أخيه ، حتى إنه احتاج فى بعض الأوقات إلى ثلاثمائة دينار ، فلم يجدها ، فقال :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه
إليه تحمل الأموال طراً ويمنع بعض ما يجبى إليه [١]

ومنذ بنيت سامرّا اتخذها الخلفاء قاعدة حكمهم ، حتى كان المعتمد ، فتركها عائداً إلى بغداد ، ولم يعد إلى « سامرّا » أحد من الخلفاء بعد ذلك [٢] .

ومع ما عمله الموفق من إعادة شىء من الهيبة للخلافة لم يستطع أن يحول دون محاولة ولاة الأطراف اقتطاع أجزاء من جسم الدولة ، والاستقلال بها بعد أن رأوا استبداد الأتراك بالخليفة ، وانشغالهم بالتكالب على جمع الأموال ؛ فرأينا أحمد بن طولون يحاول الاستقلال بمصر [٣] ، ويدخل فى حوزته بلاد الشام والثغور ، ورأينا السامانيين يؤسسون دولة عظيمة فيما وراء النهر [٤] ، وبعض العلويين يحاولون الاستيلاء على بعض الأقطار [٥] ، والصفارين يعملون على الاستيلاء على فارس وغيرها [٦] .

وشغلت ثورة الزنج [٧] جانباً كبيراً من عصر المعتمد ، فقد خرج فى فرات البصرة رجل زعم أنه من نسل علىّ بن أبى طالب ، وأخذ يجمع إليه السود ، يذكرهم بما هم فيه من سوء الحال ، والرقّ ، والتعب ، ويعدهم ، إن هم اتبعوه ، أن الله سيبعدهم عن هذا العناء ، ويرفع أقدارهم ، ويملكهم العبيد والإماء، فاتبعه خلق كثير ، واستولى بهم على بلاد عدّة ، وشبت بينه وبين أهل البصرة معركة عنيفة ، غرق فيها طائفة كبيرة من أهل البصرة ، وقتلت طائفة، قال صاحب

---

(١) الكامل ٧ : ١٨١ . (٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق ص ١٢٨ و ١٦٤ . (٤) المرجع السابق ص ١١٠ .
(٥) المرجع السابق ص ٩٨ و ١٦٣ . (٦) المرجع السابق ص ١٠٣ و ١١٥ .
(٧) راجع أخبار الزنج فى الكامل وأخبار الملوك فى حوادث سنة ٢٥٥ هـ ، إلى سنة ٢٧٠ هـ .

الكامل[١] : « وهرب الباقون إلى الشط ، فأدركهم السيف ، فمن ثبت قتل ، ومن ألقى نفسه فى الماء غرق ، فهلك أكثر ذلك الجمع ، فلم ينج إلا الشريد ، وكثر المفقودون من أهل البصرة ، وعلا العويل من نسائهم ، وهذا يوم البيداء الذى أعظمه الناس ، وكان فيمن قتل جماعة من بنى هاشم وغيرهم فى خلق كثير لا يحصى ، وجمعت للخبيث الرءوس ، فأتاه جماعة من أولياء المقتولين ، فأعطاهم ما عرفوا ، وجمع الرءوس التى لم تطلب ، وجعلها فى خزينة ، فأطلقها ، فجاء الناس ، وأخذوا كل ما عرفوه منها ، وقوى بعد هذا اليوم ، وتمكن الرعب فى قلوب أهل البصرة منه ، وأمسكوا عن حربه » .

وقد استفحل أمر الزنج ، فشمر الموفق عن ساعد الجدّ ، ووقعت بينه وبين صاحب الزنج حروب ووقائع انتصر الموفق فى آخرها ، وقتل صاحب الزّنج فى أواخر عام سبعين ومائتين هـ ، بعد أربعة عشر عاماً ، قضاها فى الإفساد والتّخريب .

ويظهر أن الموفق نجح فى كفّ طغيان قوّاد الأتراك ، فامتد عمر الخليفة ، وظل على عرشه حتى توفى ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩هـ (١٥ من أكتوبر سنة ٨٩٢ م) ، وبويع المعتضد بالخلافة يومئذ ، قال المسعودى : « ولما أفضت الخلافة إلى المعتضد سكنت الفتن ، وصلحت البلدان ، وارتفعت الحروب ، ورخصت الأسعار ، وهدأ الهرج ، وكان مظفراً ، قد دانت له الأمور ، ... وأديل له فى أكثر المخالفين عليه ، والمنابذين له ، ... وخلف المعتضد فى بيوت الأموال تسعة آلاف ألف دينار ، ومن الورق أربعين ألف ألف درهم ، ومن الدواب والبغال والحمير والجمال اثنى عشر ألف رأس ، وكان مع ذلك شحيحاً بخيلا ، ينظر فيما لا ينظر فيه العوام . . . وكان مع ذلك قليل الرحمة ، كثير الإقدام ، سفاكاً للدماء ، شديد الرغبة فى أن يمثل بمن يقتله »[٢] .

وفى عهد هذا الخليفة مات البحترىّ كما أنه ولد فى عهد المأمون .

---

(١) ٧ : ٨٥ .

(٢) مروج الذهب ٣ : ٤٦٢ .

٢ ـ الحياة الاجتماعية

اختلط العرب بعد أن تمت الفتوح فى العهد الأموىّ بكثير من الأمم المختلفة جنساً ولغةً وديناً واجتماعاً، فقد فتحوا البلاد من الأندلس وشمال إفريقية ومصر والشام والعراق وفارس إلى ما وراء فارس، واتصلوا بأعظم مدنيتين قائمتين يومئذ، وهما: مدنية الفرس ومدنية الروم؛ فكان لهذا الاختلاط، والاتصال أثره الكثير فى الحياة الاجتماعية فى العصر العباسىّ.

ذلك أنّ العرب فى العصر الأموىّ ترفّعوا عن مخالطة الأعجام، اعتزازاً بجنسهم، فلما جاء العصر العباسىّ ارتفع شأن الفرس، بما كان لهم من فضل فى تأسيس الدولة، فأخذوا يجهرون بمآثرهم، وما كان لهم من تاريخ قديم ومجد، وأنكر العرب عليهم ذلك، وطال الجدل بين الفريقين، وكان من ذلك انتشار مبدأ الشعوبية (١) الذى يقرّر ما كان للشعوب غير العرب من آثار فى الفكر والمدنية.

وكان من آثار ارتفاع شأن الفرس وغيرهم من الموالى، وما أحسوا به من حرّية بعد ضيق فى العصر الأموىّ ـ أن أطلقوا لأنفسهم العنان فى البحث الدينىّ، ووازنوا بين عقائد أديانهم القديمة وعقائد الدين الإسلامىّ، فانتشرت الزندقة والإلحاد، وتبع ذلك غلبة الشهوات الجسمية على طائفة المستهترين، فأباحوا ما لم يكن مباحاً من قبل، من أنواع الملاذ؛ وكان من الطبيعى أن ينهض فى مثل هذا المجتمع طائفة من الوعاظ، تدعو الناس إلى سواء السبيل، وتأمرهم بالتزام جادّة الدين.

وشاع فى العصر العباسىّ تسرّى الجوارى، وكان خلفاء بنى العباس منذ الهادى أبناء سرارى (٢). ما عدا الأمين فإنه ابن زبيدة بنت جعفر المنصور،

---

(١) تاريخ الأدب العربى، فى العصر العباسى للأستاذ السباعى بيومى ص ١١. والشعوبية مبدأ من يصغر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلا على غيرهم؛ فقيل لمحتقر أمر العرب: شعوبى. أضافوه إلى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم: أنصارى.

(٢) راجع مروج الذهب فى تقديمه لكل خليفة.

وامتلأت قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء بالجوارى والقيان[١] ، وكان لذلك أثره الكبير فى النشء من ناحيتى الجسم والعقل ، وكان لهؤلاء القيان أثرهن فى الأدب العربىّ يومئذ .

وقد أثر اختلاط العرب بقوم يرون لأنفسهم مجداً ورفعة فى التاريخ ، وهذا النسل الجديد من أبناء الجوارى فى أن تخلى العرب عن كثير من مناقبهم التى شبوا عليها فى بداوتهم ، وهذّبها الإسلام فى صدر إسلامهم ، كالاستقلال ، والشجاعة ، والنجدة ، والأنفة ، والعفة ، مما جبلوا على مدحه ، وكان له فى أدبهم صور رائعة ، وأصبحنا نجد عندهم الضعف ، والاستسلام ، والغدر[٢] .

كان المجتمع يومئذ مكوّناً من طبقتين : طبقة الخاصة ، وهى الخليفة ، وأهله ، ورجال دولته ، والأغنياء من الشعب . والثانية طائفة العامة ، وهى المزارعون من أهل القرى ، والصّناع والتجار فى المدن . أما طبقة الخاصّة فقد استأثرت بالخيرات والمال ، تكتنزه حيناً ، وتنفقه على ملذاتها حيناً آخر ، فكان الترف مثلهم الأعلى ، وحسبك أن تعلم أنه عثر عند أم المعتز على مقدار خمسمائة ألف دينار ، وظفروا لها بخزائن تحت الأرض فيها أموال كثيرة ، ومن جملتها دار وجدوا فيها ألف ألف دينار ، وثلاثمائة ألف دينار ، ووجدوا عندها فى أحراز زمرّداً لم ير الناس مثله ، ومن اللؤلؤ الكبار ، والياقوت الأحمر ما لم يوجد مثله[٣] . وقد كان هذا المال سبباً فى انغماس طبقة الخاصة إلى أذقانهم فى الترف والحضارة ، فبنوا القصور العالية ، تحفّ بها الحدائق الوارفة الظلال ، وتجرى من تحتها الأنهار ، وتقام فى أفنيتها البرك الرخامية ، كما لبسوا أرق أنواع الحرير ، وجعلوا لحياة العمل لباساً ، ولحياة اللهو لباساً آخر ، وأكلوا ما لذ وطاب من ألوان الطعام ، وشربوا ما شفّ وراق من أنواع الشراب ، وحشدوا فى قصورهم أجمل أنواع الأثاث ، واقتنوا الأحجار الكريمة والجواهر ، وتأنقوا فى تزيين حيطانهم وسقوفهم بصور الذهب والفضة ؛ وتفنن الخلفاء فى الاحتفال بمواكبهم ،

---

(١) القيان : جمع قينة وهى : الأمة المغنية .

(٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى للأستاذ السباعى ص ٢٥ .

(٣) الكامل ٧ : ٧٨ .

وإظهار الزينة والأبهة ، مما أخذ بألباب الناس ، وبخاصة الشعراء .

كان هذا الترف سبباً فى أن النفوس قدّست المادة يومئذ، لتشبع جشعها، فأحبّ الناس المال حبّاً شديداً ، ومضوا يريدون الحصول عليه من أى طريق كان ، فانتشرت الرشوة انتشاراً مخيفاً ، فأثرى من بيدهم تصريف الأمور إثراء سريعاً، وتبع ذلك أنّ ذوى الأمر كثيراً ما أقدموا على استصفاء اموال هؤلاء[1]، لعلمهم أنها جمعت من الحرام .

وكان هذا المال أيضاً سبباً من الأسباب التى كانت تدعو الجند إلى الشغب ، فإذا رأوا طائفة منهم قد استأثرت ببعض المال، أو رأوا مالاً عند الخليفة أو أهله ، ثاروا يريدون نصيبهم من هذا المال[2]، وقد رأينا بعض الآثار لجشع طوائف الجند فى الحوادث التى أودت بحياة بعض الخلفاء ، ولهذا كان القوّاد وكتابهم فى رفاهية من العيش وترف[3] .

كما كان هذا المال سبباً فى الخلاف بين قادة الجند[4]، وإيقاع بعضهم ببعض .

تغلبت روح النفعية فى ذلك العصر ، وسادت هذه الروح الصّلات التى تربط بين الناس ، لاندفاعهم فى طريق المادة ، ورغبتهم فى أن يحصلوا على المال من أى طريق كان .

أما طبقة العامة فكانت كادحة مجدّة؛ لتظفر بما يحفظ عليها الحياة، ولهذا كان هذا العصر عصراً خصباً لخروج صاحب الزنج الذى أخذ يمنى أتباعه بحياة أفضل من حياة التعب والشقاء التى يقاسونها ، وذلك للفرق الشاسع بين الطبقتين ، وقد رأينا استجابة قوية لدعوته ، كلفت الدولة كثيراً من الجند والجهد والمال .

ولم يكنّ للدّين سلطانه المطلق على نفوس الخلفاء والوزراء ، إذا استثنينا القليل منهم كالمهتدى ، فتسامحوا فى شرب النبيذ ، ومالوا إلى اللهو ، وقلْ مثل

---

(١) أخبار الأمم والملوك ١١ : ١٠ ، ١٦٠ .

(٢) الكامل ٧ : ٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٩١ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك ١١ : ١٥٦ .

ذلك فى القوّاد والجند ، حتى لقد ثاروا على المهتدى حينما أراد أن يحملهم على سيرة الرّسول وأهل بيته والخلفاء ، فقيل له : الرسول كان مع قوم زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة ، وأنت إنما رجالك تركىّ ، وخزرىّ ، ومغربىّ ، وغير ذلك من أنواع الأعاجم ، لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا [١] .

وإذا كان الشعب قد أحبّ المهتدى فذلك لعدله ، ورغبته فى رد المظالم ، ولكنهم استثقلوا منه رغبته فى أن يحملهم على آداب الدين والعمل بمبادئه [٢] .

ولكنّ مظهراً من مظاهر الدين بقى له جلاله وقيمته ، وهو مظهر الحج ، يعنى به الشعب ، وتعنى به الدولة ، فتقيم كبيراً من كبرائها يكون على رأس حجاجها فى كل عام .

٣ ـ الحياة العقلية

وجه بنو العباس همّهم نحو العلم والثقافة ، وشغفوا بعلوم الأمم الأجنبية ذات الحضارة والمدنية ، فأقبل العلماء على التأليف والترجمة ، وزادهم إقبالا على عملهم حثّ الخليفة أبى جعفر المنصور عليه ، وحمله الأئمة على جمع الحديث والفقه ، وبذله ، على بخله ، الأموال الجزيلة للعلماء . ولم يقتصر المنصور على تعضيد العلوم الإسلامية ، بل أوعز إلى العلماء والمترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا إلى العربية من الفارسية واليونانية فنون الطبّ ، والسياسة ، والحكمة ، والفلك ، والتنجيم ، والمنطق ، وتابعه فى ذلك أولاده وأحفاده ، وما انتهى عصر المأمون والواثق حتى لم يبق علم مما صنف فيه اليونان والسريان والفرس والهنود إلا ترجم منه أكثر من كتاب [٣] . وانقسمت العلوم إلى قسمين عظيمين : العلوم الإسلامية : من شرعية ولسانية ، والعلوم الدخيلة : من فلسفة إلهية وطبيعية

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٤٣٣ . (٢) المرجع السابق ص ٤٣١ .

(٣) تاريخ اللغة والآداب فى العصر العباسى للأستاذ السكندرى ص ٤٨ و ١٨٢ .

ورياضية . وغيرهما. وقد ورث القرن الثالث الذى عاش فيه البحترى ما أنتجته النهضة الفكرية من أوائل أيام الدولة العباسية ، ثم أضاف إلى ذلك ثماراً جديدة فى ألوان المعارف .

أما العلوم الشرعية ، كتفسير القرآن ، وجمع حديث الرسول الكريم ، واستنباط أحكام الدين مما عرف بعلم الفقه ، والتدليل على العقائد الدينية مما عرف بعلم الكلام — فقد درست هذه العلوم فى القرن الذى عاش فيه البحترىّ ، وعرفت بعض المؤلفات فيها ، كتفسير إسحق بن راهويه[١] المتوفى سنة ٢٣٨ هـ .

وأما العلوم اللسانية ، كالنحو والصرف فقد كان القرن الثالث عصر عناية بها : ظهر كتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٠هـ . فى النحو على مذهب البصريين ، وشرحه تلميذه الأخفش ، كما ظهر كتاب الحدود للفراء[٢] المتوفى سنة ٢٠٧ هـ فى النحو على مذهب الكوفيين . ونشأ فى البصريين والكوفيين طبقات تشرح ، وتكمّل ، وتختصر ، وتضع الاصطلاحات ، وكان بين البصريين والكوفيين يومئذ نوع من الجدل والمناظرة ، فلما كانت بعض الفتن ، كثورة الزّنج نزح الفريقان إلى «بغداد» ، ونشأت طريقة هى خليط من المذهبين ، وتعرف بطريقة البغداديين .

وأما اللغة ، فقد حاول العلماء يومئذ جمع ألفاظ اللغة فى كتاب ، بعد أن وضع بعض العلماء رسائل صغيرة فى فئات من الألفاظ التى تتصل بموضوع واحد ، كالتى تجمع أعضاء الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، ومما زاد اهتمامهم بها أنهم رأوا القوم يجهلون معانى الألفاظ ، والفرق بين معانى الكلمات ، كما يحدثنا بذلك ابن قتيبة فى مقدمة كتابه[٣] .

وأما علوم البلاغة ، ولم تكن قد تميزت بعد بفروعها الثلاثة المعروفة اليوم : من معان ، وبيان ، وبديع ، فقد شهد هذا العصر مبدأ تكوينها فى كتاب مجاز القرآن الذى ألفه أبو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦هـ ، عقب أن سئل فى مجلس الفضل بن الربيع عن معنى قوله تعالى : « طلعها[٤] كأنه رءوس الشياطين » ،

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى للأستاذ السباعى بيومى ص ٢٤٠ و ٢٤٢ .
(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٢٢٨ .　　(٣) أدب الكاتب ص ٤ .
(٤) طلع النخلة : ما يخرج منها كأنه نعلان مطبقان ، والحمل بينهما منضود .

وأن الشياطين ورءوسها لم تعرف ؛ فأجاب بأنه على حدّ قوله :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال [١] ؟!

وكالذى كان من الجاحظ فى كتابه : « البيان والتبيين » من تعرضه لبعض مسائل البلاغة ، من غير أن تتضح معالم هذه العلوم ، أو تتفرغ مسائلها ، وتنحصر على النحو الذى نراه اليوم . كما أنّ غرام بعض الشعراء المحدثين بالمحسنات والزخارف الصناعية دفع رجال الأدب فى ذلك العصر إلى دراستها ، ووضع أسماء لها ، ومعرفة نماذجها فى الأدب الموروث ، وفى القرآن الكريم ، والسعى وراء استقصائها ، وجمع الأمثلة لها ، وتمخض ذلك كله عن كتاب لابن المعتز سماه : « البديع » ، وليس كل ما فيه من علم البديع الذى نعرفه اليوم ، بل أدخل فيه بعض مسائل البيان كالاستعارة والكناية .

ومن تلك العلوم جمع الأدب الموروث ؛ فقد عنى العلماء بجمع الشعر ، وبدت هذه العناية منذ صدر الدولة العباسية ، فقد جمع المفضل الضّبى المتوفى سنة ١٦٨ هـ كتابه المفضّليات بأمر أبى جعفر المنصور ، فلما جاء القرن الثالث رأينا أبا تمام المتوفى سنة ٢٣١ هـ يجمع كتابه « الحماسة » ، ويبوبه ، ويدل به على حسن اختياره ، كما أن له مجموعاً آخر سماه : «فحول الشعراء» ، جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين ، وله كتاب « الاختيارات من شعر الشعراء» [٢] ، ثم يجىء بعده البحترى فيعارضه ، ويجمع كتاباً دعاه : «الحماسة» أيضاً .

وكانت العناية بجمع الشعر تغذّيها دوافع كثيرة ، منها الاقتباس من المعانى القديمة ، ومنها تقويم الألسنة وتعديلها بحفظ الشعر العربىّ البليغ ، ومنها استنباط قواعد النحو والصرف ؛ لأن أخذها من الشعر أسهل ، ومنها معرفة المعانى اللغوية للمفردات . وعلى هذا رأينا المبرّد صديق البحترىّ ، يجمع فى كتابه طائفة صالحة من الشعر يدرس فيها الأحكام ويقتبس القواعد ، ويعرف المعانى اللغوية .

---

(١) المشرفى : السيف . والمسنونة : الرماح ركب فيها السنان . والأغوال : جمع غول وهى : شيطان يأكل الناس . والبيت لامرئ القيس .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ١٢١ .

كما كان ذلك وسيلة إلى نقد ما أثر من الشعر العربى ، وقد شهد عصر البحترى كذلك أوائل الكتب التى ألفت فى نقد الشعر ، جمع المؤلف فى بعضها ما وصل إليه من آراء السابقين حتى عصره ، وما لهم من نظرات نقدية فى الشعر الجاهلى ، وبدا فى بعضها النزاع الذى كان دائراً بين طائفة المجدّدين والمحافظين ؛ فظهر فى هذا العصر كتاب طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى ، المتوفى سنة ٢٣١ هـ . وتلاه الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

وإلى جانب دراسة الشعر ونقده كان العلماء كذلك يجمعون النثر ويدرسونه ، فظهرت الكتب الجامعة لأشتات من الخطب ، وأنواع من الرسائل ، والعهود ، والمكاتبات ، يشرحونها ويعلقون عليها ، ويروون الأخبار التى تتعلق برجالها ، وربما قصدوا بإيراد هذه النماذج بيان معنى بلاغة الكلام . وكان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ أول من سنّ هذه الطريقة فى كتبه التى من أهمها « البيان والتبيين » ، وتبعه أحمد بن أبى طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ ، وأبو العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، فى كتابيه : « الكامل ، والروضة » .

والتاريخ يتعلق بالأدب ، فلم يكد يطلع القرن الثالث حتى كان التاريخ متميز الأنواع : بين تاريخ أنساب ، وتاريخ سيرة الرسول الكريم ، وتراجم ، وتاريخ المغازى والفتوح ، وغيرها ، وكان ذلك ممهداً لوضع تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين كهذا الذى وضعه ابن جرير الطبرىّ المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

وإلى جانب دراسة التاريخ درست الجغرافية ، ففى عصر المأمون ترجمت كتب اليونان فيها ، وصححت أغاليط حكماء اليونان فى الفلك والجغرافية [١] ، كما ألف ابن خرداذبة صديق البحترىّ والمتوفى سنة ٢٨٠ هـ ، كتابه المشهور : « المسالك والممالك » [٢] بعد أن جاب أنحاء المملكة الإسلامية ، وقد استفاد البحترى من ذلك كله غالباً فى رحلاته ، التى كان يرحلها فى الشرق والغرب حتى قال :

مالى وللأيام ، صرّف صرفها حالى ، وأكثر فى البلاد تقلبى [٣]

---

(١) تاريخ اللغة والآداب للسكندرى ص ٥٣ .

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢١٣ .

(٣) صرفت الأيام حاله : بدلته . وصرف الدهر : نوائبه .

أمسى زميلاً للظلام ، وأغتدى ردفاً على كفل الصّباح الأشهب (١)
فأكون طوراً مشرقاً للمشرق الأ قصى ، وطوراً مغرباً للمغرب

ومما ينبغى أن يوجه إليه النظر أن التصنيف فى الأدب يومئذ لم يتبع غالباً منهج التبويب المنطقى المنظم ، فلم يكن المؤلف يستوفى الموضوع الذى يكتب فيه ، بل تراه ينتقل من غرض إلى غرض ، ومن فكرة إلى أخرى ، إن عنت مناسبة ، أو ظهر ما يدعو إلى الانتقال ، فهو يسلمك من باب إلى باب ، ولو لم تستكمل الأول دراسة وفحصاً ، وقد يعود بك إلى الموضوع السابق ، ويرون فى اتخاذ هذه الطريقة صرفاً للقارئ عن الملل والسآمة ، كما ترى ذلك فى كتب الجاحظ ، وابن سلام ، والمبرّد الذى علل اتباع ذلك بقوله : « لتكون فيه استراحة للقارئ ، وانتقال ينفى الملل ؛ لحسن موقع الاستطراف ؛ ونخلط ما فيه من الجدّ بشىء يسير من الهزل ، يستريح إليه القلب ، وتسكن إليه النفس ، قال أبو الدرداء (رحمه الله) : « إنى لأستجمّ نفسى بالشىء من الباطل ، ليكون أقوى لها على الحق » (٢).

ولكن ذلك لم يمنع بعض المؤلفين من التبويب الدقيق كما فعل أبو تمام فى حماسته ، بل إن البحترىّ غالى فى التبويب ، وتعمق فى جمع النظير إلى النظير ، واضعاً شديد التشابه بعضه إلى جوار بعض ، فى حماسته التى سنتحدث عنها .

أما العلوم الدخيلة فهى أربعة أقسام : طبيعية ، كالكيمياء ، والطبيعة ، والطب ، والصيدلة ، والفلاحة ، وعلم الحيوان والنبات والجماد . ورياضية ، كالجبر ، والحساب ، والهندسة ، والحيل (الميكانيكا) ، والفلك ، والجغرافية النظرية . وإلهية ، وتشمل كل ما وراء الطبيعة . وسياسية . كتنظيم الملك ، وتدبير المنزل ، وتدبير المال ، والأخلاق . وكانت الكتابة فى هذه العلوم تتبع النهج الذى كتبت به فى لغاتها ، ولذلك بقى نظامها وترتيب مسائلها كما وضعه

(١) الردف : الراكب خلف الراكب . والأشهب : ما كان ذا بياض يخالطه سواد .
(٢) الكامل للمبرد ٢ : ٢١٩ .

أصحابها ، وكانت الترجمة فى أوّل أمرها ليست كما ينبغى ، لقلة من يجيد اللغتين : العربية ، والأعجمية ، فلما اتسعت الترجمة فى زمن المأمون أقبلوا يصحّحون ما ترجموا من قبل ، ويترجمون ما يجابه إليهم المأمون من كتب الفلسفة التى أحضرها من القسطنطينية وغيرها من بلاد آسيا الصغرى [١] . وقد كان للفلسفة تأثير كبير فى ذلك العصر ، فتأثرت بها العلوم الشرعية ، وتأثر بها الأدب ، وقد ثار البحترىّ على من أراد أن يخضع الشعر لقواعد المنطق ، كما سنرى .

أما الإنتاج الأدبى : شعره ونثره ، فإن الكتابة الإنشائية قد بلغت فى هذا العهد شأواً بعيداً من الازدهار والتقدم ، وكان لها ديوان يرأسه كاتب كبير ، يشرف على النهوض بها ، وكانت الكتابة حينئذ هى السبيل إلى الوزارة ، فوزراء المأمون والمعتصم والواثق من نوابغ كتاب عصرهم .

وكانت طريقة عبد الحميد الكاتب هى الطريقة التى سار عليها معظم الكتاب فى هذا العصر ، فترى فيها قلة الكلف بالسجع ، والعناية قبل كل شىء بالمعنى ، ولما جاء الجاحظ أولع بالتوازن الموسيقى فى كتاباته ، فقسم العبارة أقساماً قريبة التساوى . وكانت ترجمة العلوم الدخيلة إلى اللغة العربية من الأسباب التى ثقفت عقول الكتاب ، فحاولوا استقصاء عناصر الموضوع ، وترتيب هذه العناصر ، وحسن التعليل ، وإيراد الدليل ، والحق أن تلك الطائفة التى ربيت فى عصر المأمون قد تغذّت بالبلاغة العربية ، والآداب الدخيلة ، فنتج ذلك كله طرازاً ممتازاً فى الكتابة العربية ، وقد حفظ التاريخ أسماء طائفة من النابغين فى الكتابة يومئذ مثل أحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة ، وابن الزيات ، والجاحظ ، والصولى ، وآل وهب ، وبنى المدبر ، والحسن بن مخلد [٢] .

واستعملت الكتابة لأغراض شتى بين رسائل ديوانية تتعلق بإدارة الملك ، وتدبير شئون البلاد ، وهى الرسائل التى كان يشرف عليها ديوان الإنشاء ؛ وبين رسائل إخوانية ، ورسائل تناولت تناولا أدبيّاً بعض الأمور الاجتماعية وغيرها

---

(١) تاريخ اللغة والآداب للسكندرى ص ٥٣ .
(٢) ارجع فى هذه الشخصيات إلى كتاب طيف الوليد .

كرسائل الجاحظ . كما ازدهر الشعر فى النصف الأول من القرن الذى عاش فيه البحترىّ ، تحت كنف الخلفاء والوزراء ، بل شارك بعضهم فى قول الشعر ، فمما غنى به للمنتصر قوله :

رأيتك فى المنام أقلّ بخلا وأطوع منك فى غير المنام
فليت الصبح باد ، ولا نراه وليت الليل آخر ألف عام
ولو أنّ النعاس يباع بيعاً لأغليت النعاس على الأنام[١]

وعرض على المهتدى يوماً دفاتر خزائن الكتب ، فإذا على ظهر كتاب منها هذه الأبيات ، قالها المعتزّ بالله ، وكتبها بخطه ، وهى :

إنى عرفت علاج الطب من وجع وما عرفت علاج الحبّ والخدع
جزعت للحبّ ، والحمى صبرت لها إنى لأعجب من صبرى ومن جزعى
من كان يشغله عن إلفه وجع فليس يشغلنى عن حبكم وجعى
وما أملّ حبيبى ، ليتنى أبداً مع الحبيب ، ويا ليت الحبيب معى

فقطب المهتدى بالله وجهه ، وقال : حدث ، وسلطان الشباب[٢] .

ولابن الزيات ديوان من الشعر ، ومن الأمراء الشعراء أمراء البيت الطاهرى ، كعبيد الله[٣] بن عبد الله ، الذى حدثت بينه وبين البحترىّ محاورة شعرية ، تجدها فى ديوانه .

غير أنه مما يلحظ أن كبار الشعراء فى تلك الحقبة نبغوا فى عهد الاستقرار السياسى قبل مصرع المتوكل ، فلما اضطربت الأمور باستبداد الأتراك لم ينجب العصر شعراء كهؤلاء الذين رأيناهم فى عهد الاستقرار ، وكان امتداد عمر هؤلاء مما جعل عهد الاضطراب الذى سقطت فيه الخلافة بعد المتوكل — عامراً بالشعر ؛ وبعد موتهم أقفر الميدان من الشعراء الكبار .

وقد شهد القرن الذى عاش فيه البحترىّ أبا تمام الذى أفرط فى استخدام المحسنات البديعية ، وغالى فى حبّ هذه الصناعة ، غير أنّ كثيراً من الشعراء الذين عاصروا البحترى لم يفرطوا إفراط أبى تمام فى ملء شعرهم بهذه الطريقة الجديدة فى استخدام المحسنات .

(١) مروج الذهب ٣ : ٣٩٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٢٨ .
(٣) راجع طيف الوليد ص ٥٦ .

ولم تخرج أغراض الشعر يومئذ عن الأغراض التى عرفت قبل هذا العصر : من مدح ،وفخر ، وغزل ، وهجاء ، ورثاء ، ووصف ، وتهكم ... إلخ ، وازدهر فى هذا العصر وصف الطبيعة ، ووصف مظاهر الحضارة التى ارتقت فى العصر العباسى .

ولقد كان الحديث عن الشعر والشعراء تعمر به مجالس الأدباء والخلفاء الأولين فى ذلك العصر ، فينشدون الشعر ، ويوازنون بين الشعراء ، وفى الكتب الأدبية والتاريخية (١) التى تناولت هذا العصر كثير مما دار فى هذه المجالس عن الشعر ، ونقده ، والموازنة بين الشعراء .

ومما يتصل بالشعر فن الغناء ، فبينهما صلة وثيقة ، وقد ظلت صناعة الغناء تتدرج حتى وصلت أوج كمالها فى العصر العباسى عند إبراهيم بن المهدى ، المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، وإبراهيم الموصلى المتوفى سنة ١٨٨ هـ ، وابنه إسحق المتوفى سنة ٢٣٥ هـ ، وظل الاهتمام بها فى أيام البحترى ، فكان الخلفاء والوزراء يشجعون المغنين ، ويتخذون منهم ندماء ، ويجزلون لهم فى العطية ، وما علمنا خليفة أعرض عن سماع الغناء فى هذا العصر إلا ما كان من المهتدى عقب توليته ، فإنه أخرج المغنين ، والقيان من «سامرا» ، كما سبق أن ذكرنا ، غير أن زمنه كان قصيراً .

وكان استبداد الأتراك بشئون السلطان ، واستبداد الموفق بأخيه المعتمد ، مما ساعد على انصراف الخلفاء إلى اللهو واستماع الغناء . وفى هذا العصر ألف حسن بن موسى النصبى كتباً فى الأغانى ، منها كتاب ألفه للمتوكل ، قال عنه ابن النديم : « إنه ذكر فى هذا الكتاب أشياء من الأغانى لم يذكرها إسحق ، وذكر من أسماء المغنين والمغنيات فى الجاهلية والإسلام كل طريف وغريب» (٢) .

تلك كانت حال الشعر والكتابة ، أما الخطابة فقد ضؤل أمرها ، بعد استقرار أمر الدولة ، وكان لانتقال السلطان إلى أيدى الأتراك أثر فى اضمحلال شأن الخطابة التى كادت تكون مقصورة على خطب الجمعة والأعياد ، وكان الخلفاء يلقونها بأنفسهم على المنابر ، إذ كانوا يخرجون إلى الصلاة فى أبهة وزينة ، وإن كنا لا نعدم خطباً غير مسجدية ، كخطب صاحب الزنج التى كان يجمع بها الجموع ، يمنيهم بعذب الأمانى وحلو الوعود .

---

(١) راجع أخبار أبى تمام للصولى ، ومروج الذهب للمسعودى فى أماكن كثيرة .
(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢٠٨ .

الفصل الثانى

البحترى فى عصره

١ ــ حياته

ولد البحترىّ فى العام السادس بعد المائتين هـ ، وسمّاه أبوه : الوليد، وكناه بأبى عبادة ، ولكن الاسم الذى شهر به الشاعر فى عالم الأدب ، واستتر تحت شهرته اسمه وكنيته هو البحترىّ ، نسبة إلى بحتر أحد أجداده[١] .

والبحترىّ هو الوليد بن عبيد بن يحيى ، ويذكر له مؤرخوه سلسلة نسب تنتهى بطيئ[٢] ، فهو يمنىّ قحطانى من ناحية أبيه ، ولكنه عدنانى من ناحية أمه التى تنتسب إلى شيبان ، وهى قبيلة ينتهى نسبها إلى ربيعة من عدنان[٣] . وقد أخبرنا مؤرخوه بانحداره من طيئ ، وحدثنا هو بذلك فى كثير من شعره ، كقوله مفتخراً :

إنّ قومى قوم الشريف قديماً وحديثاً : أبوّةً ، وجدودا
ذهبت طيئ بسابقة المجـ ـد على العالمين بأساً ، وجودا[٤]

وأما أن أمه من شيبان فلم يحدثنا عنه التاريخ وإنما عرّفنا به البحترىّ حين قال :

أعمرو بن شيبان ، وشيبانكم أبى إذا نسبت أمى ، وعمركم عمرى

وهو لذلك كان يعدّ ربيعة كلها أخواله فيقول :

أسيت لأخوالى : ربيعة ؛ إذ عفت مصايفها منها ، وأقوت ربوعها[٥]

شهدت منبج ولادة البحترىّ، وهى فى الشمال الشرقىّ من حلب ، وعلى

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ١٧٨ . (٢) المرجع السابق ص ١٧٥ .

(٣) راجع سلسلة نسب شيبان فى العقد الفريد ٢ : ٢٢٩ .

(٤) البأس : الشجاعة والقوة .

(٥) أسى : حزن . وعفا : امحى . وأقوت : خلت من سكانها .

بعد قريب من غربيّ الفرات ، يقول عنها ياقوت : « هى مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة ، وأرزاق واسعة ، فى فضاء من الأرض ، كان عليها سور مبنيّ من الحجارة ، محكم . . . وشرب أهلها من قنى تسيح على وجه الأرض ، وفى دورهم آبار ، أكثر شربهم منها ؛ لأنها عذبة صحيحة »[١] .

تلقى البحترىّ ثقافته الأولى فى منبج ، وهى لا تزيد عادة على حفظ القرآن ، وشيء من بليغ الشعر والنثر ، وتعلم أحكام الدين ، وسنة الرسول ، وأخذ طرف من علوم اللغة ، وأخبار الفتوح والمغازى ، وأيام العرب وأنسابهم .

وجرى الشعر على لسان الفتى ، لا يرجع فيه إلا إلى طبعه ، مما يدل على أنه ولد موهوباً تلك الملكة الشعرية ، فاستكثر من حفظ الشعر وترديده ، ويروى بعضهم أن البحترىّ كان يمدح فى منبج أصحاب البصل والباذنجان[٢] ، ونحن نشكّ فى هذه الرواية ، لأن أسلاف البحترىّ الذين حفظ نماذجهم لم يعرضوا شعرهم فى السوق على مثل أصحاب البصل والباذنجان ، حتى يقتدى الشاعر بهم فى هذا المجال ، وإذا كان الفتى يطمع أن ينال جزاء على شعره فليس لدى هؤلاء ما يطمع الشاعر أن يناله ، ولديه من ولاة المدينة ، وهم من بنى هاشم[٣] ، مَن يستطيع أن يظفر عنده بما يشاء ، فضلا عن أنه حين يمدح أمثال هؤلاء يعرّض نفسه لسخرية ربما حطمت آماله فى مطلع حياته ، وهو لا شك طامع فى مستقبل كبير .

وجد البحترىّ فى نفسه هذه الموهبة الشعرية فأراد أن يصقلها ويهذبها ، على يد خبيرة مدرّبة ، فمضى يلتمس أبا تمام ، وكان يجلس بحمص للشعراء ، يعرضون عليه أشعارهم ، ويسألونه الرأى فيما يعرضونه عليه ؛ وبينما هو فى طريقه إلى حمص مرّ بحلب ، وفيها فتن بفتاة تدعى : «علوة» ، ولا يلقى التاريخ شيئاً من الضوء على هذه الفتاة وأسرتها ، ولكنّ رسالة[٤] كتبها ابن بطلان المتطبب إلى هلال بن المحسن الصابئ فى نحو سنة أربعين وأربعمائة هـ ، تحدثت عن دار

---

(١) معجم البلدان ٨ : ١٦٩ .
(٢) وفيات الأعيان ٢ : ١٧٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١٧٨ .
(٤) معجم الأدباء ١٩ : ٢٤٩ .

« علوة » فهل يشعرنا هذا الحديث بأن لهذا البيت مكانة اجتماعية ، جعلت ذكره محفوظاً طول هذه المدة ، أو أن اتصال البحترىّ بعلوة هو الذى منح بيتها هذه الشهرة ، وحفظ اسمها ؟

وقد رسم لنا البحترى بعض صفاتها ، فهى :

بيضاء يعطيك القضيب قوامها ويريك عينيها الغزال الأحور(١)
تمشى ، فتحكم فى القلوب بدلّها وتميس فى ظل الشباب ، وتخطر(٢)

وهى حبيب :

مهفهف يعطف الوشاح على ضعيف مجرَى الوشاح منهضمه(٣)
يجذبه الثقل حين ينهض من ورائه ، والخفوف من أممه

وظل الشاعر يذكر هذا الحبّ ، ويشتاق إلى حلب ، بعد أن رحل عنها ، ويحن إلى هذا العهد الذى قضاه فيها ، وكان لذلك أثر عميق فى غزله .

نزل البحترىّ حمص ، وعرض شعره على أبى تمام ، فتوسّم فيه النجابة ، ورأى عنده شاعرية حية ، فأقبل عليه ، وسرّ به . وظل البحترىّ بعدئذ على اتصال بأبى تمام الذى لم يبخل على الشاعر بالتوجيه ، وشرح ما غمض عليه من ألوان القول ، وحفظ التاريخ بعض هذه الدروس(٤) .

ورحل البحترىّ إلى بغداد وسرّ من رأى ، فى عهد الواثق ، ينهج نهج أسلافه فى عرض شعره على رؤساء الدولة وكبار رجالها ، وأراد أن يتصل بوزير الخليفة : محمد بن عبد الملك الزيات ، فأنشأ قصيدة يمدحه فيها ، ويثنى على بلاغته ، حتى جعله يفوق فى الكتابة عبد الحميد الكاتب ؛ وقد تأنق الشاعر فى هذه القصيدة غاية التأنق ؛ لأنه كان يبنى عليها كبار الآمال ، فإليه قطع هذه الرحلة الطويلة ، وتنطق القصيدة بما كان فى قلب الشاعر من أمل وتفاؤل ، إذ يقول :

يا نديمىّ بالسواجير : من ودّ بن معن ، وبحتر بن عتود(٥)

---

(١) حورت العين : اشتد بياض بياضها وسواد سوادها .
(٢) ماس : مشى وهو يتمايل ويتبختر . وخطر : مشى ، وهو يرفع يديه ، ويضعهما .
(٣) المهفهف : الضامر البطن ، الدقيق الخصر . والمنهضم : الدقيق الكشح .
(٤) راجع العمدة ٢ : ٩٢ ، والأغانى ١٨ : ١٧٢ .
(٥) السواجير : جمع ساجور ، وهو نهر بمنبج .

اطلبا ثالثاً سواى ؛ فإنى رابع العيس ، والدجى ، والبيد[١]
لست بالواهن المقيم ولا القا ثل يوماً : إنّ الغنى بالجدود[٢]
وإذا استصعبت مقــادة أمر سهلتّها أيدى المهارى القود[٣]
حاملات وفد الثنـــاء إلى أبـ لجَ ، صب إلى ثناء الوفود[٤]

ولكن الموت عاجل الواثق ، وأطاح المتوكل بالوزير ، فلم يطل اتصال البحترىّ بابن الزيات ، ولكنه نجح فى اتصاله بالخليفة : المتوكل ، فنال أقصى ما يستطيع أن تتطلع إليه آمال شاعر فى عصره ، ومضى البحترىّ ينشر للمتوكل دعاية دينية قوية ، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من الحديث عن ناحية دينية فى الخليفة ، تجعله حبيباً إلى قلوب رعيته ، رفيع المكانة فى نفوسهم . وصار الشاعر لسان الخليفة ، يسجل أعماله ورغائبه ، ويصاحبه فى رحلته إلى دمشق ، وعودته منها ، وينادمه إذا أقبل الليل ، كما اتصل اتصالا وثيقاً بمستشار الخليفة ونديمه : الفتح بن خاقان ، وظلت هذه الصلة بينه وبينهما وطيدة ، زهاء خمسة عشر عاماً ، كانت خير أيام حياته ، حتى قتل المتوكل فى مجلس منادمة ، كان البحترىّ فيه ، وقد هرب الشاعر[٥] ، وقيل : إنه نال نصيبه ضربة فى ظهره ، بقيت آثارها طول حياته[٦] . وثار البحترى لما رأى ، وأنشأ قصيدة رثاء للمتوكل ، ندّد فيها بتآمر ولىّ العهد ، مع القتلة من الأتراك .

وظل الشاعر وفيًّا لذكرى الراحليْن ، لا يكاد يلمّ به ما يؤلمه ، حتى يذكر ما كان له من سعادة ومكانة فى عهد المتوكل والفتح ، وها هو ذا تدفعه الحاجة إلى مدح من لا يراه أهلا للمدح ، فيقول فى هجاء علىّ بن يحيى الأرمنى :

---

(١) العيس : كرام الإبل . والدجى : جمع دجية . وهى : الظلمة . والبيد : جمع بيداء ، وهى : الفلاة .

(٢) الواهن : الضعيف . والجدود : جمع جد ، وهو الحظ .

(٣) المهارى : إبل تنسب إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن ، قالوا : إنها كانت لا يعدل بها شىء فى سرعة جريها . والقود : جمع أقود ، وهو : الذليل المنقاد .

(٤) الأبلج : المشرق الوضاح . والصب : المشتاق .

(٥) زهر الآداب ١ : ١٩٥ .

(٦) البحترى : درس وتحليل ص ١٤ .

أمن بعد وجد الفتح بى ، وغرامه ومنزلتى من جعفر ومكانى[١]
أكلف مدحَ الأرمنىّ على الذى لديه : من البغضاء والشنآن[٢]
نديمىَّ ، لا زال السحاب موكلا بجودكما بالسحّ ، والهطلان[٣]
فلو كان صرف الدّهر حرًّا عدا كما إلىّ ، وما ناصا كما ، وعدانى[٤]

وبرغم أنّ الشاعر ندّد بالمنتصر فى رثاء المتوكل لم يستطع أن يظل بعيداً عن قصر الخلافة ، فقد كان الشعر فى تلك الأيام يعيش فى كنف[٥] الخلفاء ، فعمل على الاتصال بالمنتصر ، وألقى بين يديه قصيدة مدح أشاد فيها بعدله وجميل عفوه .

واتصل البحترى بالمستعين بعد المنتصر ، ولكن يبدو أن الصلة لم تكن قوية بينهما . فليس للبحترىّ فيه سوى قصائد أربع ، قالها فيه طوال السنوات الأربع التى استقر فيها المستعين على عرش الخلافة ، على حين كان المستعين يعجب به ، ويرى شعره بارعاً . قال ابن خلكان : قال ميمون بن هرون : رأيت أبا جعفر أحمد بن يحيى بن داود البلاذرىّ المؤرّخ ، فسألته ، فقال : كنت من جلساء المستعين ، فقصده الشعراء فقال : لست أقبل إلا ممن قال مثل قول البحترىّ فى المتوكل :

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق مـــا فى وسعه لمشى إليك المنبر[٦]

وفرح البحترى بتولى المعتز بن المتوكل الخلافة ، وكان هوى البحترىّ مع المعتز ، بعد مقتل أبيه المتوكل ، وكان المعتزّ موضع رجاء الشاعر فى أن تئول إليه الخلافة ، وامتلأ البحترى بالأمل ، ونال ما يتمناه من مال ومكانة ، وإذا كان قد هجا المستعين بعد مدحه فقد كانت الحوادث التى جرت يومئذ تدفع إليه : فالبحترىّ من أنصار المتوكل وأبنائه ، وكان المستعين يعدّ مغتصباً

(١) الوجد : الحب الشديد . (٢) الشنآن : البغض مع العداوة وسوء الخلق .
(٣) السح : صب الماء بتتابع وغزارة . وهطل المطر : سقط متتابعاً عظيم القطر .
(٤) صرف الدهر : نوائبه . وعدا كما : ترككما . وناصى الشىء الشىء : اتصل به .
(٥) كنف : كهف وظل وملجأ . (٦) وفيات الأعيان ٢ : ١٧٦ .

للخلافة من المعتز بن المتوكل، وقد جرى التنافس على الخلافة فى أيام المستعين، فلا جرم كان التعرّض للخليفة السابق والنيل منه، عنصراً من عناصر مدح الخليفة الجديد.

واتصل البحترىّ بالمهتدى والمعتمد اتصالا غير وثيق، ويظهر أنه لم يمدح المستعين إلا لدافع قوىّ، كأنه يستعدى به على ظالم، أو يطلب إليه وضع الخراج عنه.

ولم يتصل الشاعر بالخلفاء والوزراء فحسب، ولكنه اتصل بطائفة كبيرة من الولاة، والأمراء، وقادة الجيوش، ورؤساء الكتاب، ورؤساء ديوان الضياع، وجامعى الخراج.

وكان البحترىّ محظوظاً فى شعره، ينال عليه جزيل العطاء، حتّى لقد تبلغ العطية الواحدة ألف دينار، قال مرّة يخاطب الفتح بن خاقان:

هل الأمير مجدٌّ فى تفضله ... فمنجز له فى الألف الذى وعدا

وقال للخليفة المعتز:

وما ألف بأكثر ما أرجّى ... وآمل من نداك إذا توالى

وعاش البحترىّ فى سرّ من رأى أيام كان فى بطانة المتوكل والفتح، وكان يختلف إلى منبج فى الحين بعد الحين، وكذلك كان فى أيام المعتزّ، فقد كان يستأذنه إذا أراد الذهاب إلى الشام، فمن ذلك قوله يطلب منه أن يسمح له بشهرين يزور فيهما أهله بعد فرقة شتتت شمله:

هل أطلعنّ على الشآم مبجلا ... فى عزّ دولتك الجديد المونق(١)
شهران، إن يسّرت إذنى فيهما ... كفلا بألفة شملىَ المتفرّق
قد زاد فى شوقى الغمام، وهاجنى ... زجل الرّواعد تحت ليل مطبق(٢)

ولما كبر أقام فى منبج، حتى مات بها سنة ٢٨٤ هـ.

---

(١) الشآم: لغة فى الشام. المونق: الحسن المعجب.
(٢) زجل: رفع صوته وأجلب.

٢ – صورته الجسمانية والنفسية

ليس لدىّ ما يرسم صورة البحترىّ ، ولكنى أرجح أن وجهه وجسمه لم يكن بهما قبح أو عاهة ظاهرة ، وأنه كان أميل إلى النحافة منه إلى البدانة ، وأنّ لحيته ربما كانت طويلة .

ورجحت أنه لم يكن به قبح ولا عاهة ظاهرة من هجاء ابن الرومىّ له : فابن الرومىّ معروف بمقدرته على التهكم من أصحاب الخلق الممسوخة ، والذين بهم عاهات وانحرافات جسمية ، ولم نره فى هجائه للبحترىّ ذكر عيباً جسمياً يتخذه مادة للسخرية به سوى وصفه له بأنه ذو لحية طويلة ، إذ يقول :

البحترىّ ذنوب الوجه نعرفه ... وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب[1]
أولى بمن عظمت فى الناس لحيته ... من نحلة الشعر – أن يدعى أبا العجب
ما كنت أحسب مكسوًّا بلحيتـــه ... يعفى من القفد، أو يدعى بلا لقب[2]

فلو كان به عيب فى وجهه ، أو جسمه ، أو مشيته لما فات ابن الرومى تسجيله .

وأما نحافته فقد رجحتها لقوله :

فإن تلقنى نضو العظام فإنها ... جريرة قلبى ، منذ جُرْت على جسمى[3]

وربما لم يكن الشاعر صادقاً ، كبشار الذى يقول :

إنّ فى بردىّ جسماً ناحلاً ... لو توكأت عليه لانهدم

مع أننا نعلم أنّ بشاراً كان ضخم الجثة ، مكتنزاً لحماً وشحماً .

هذا ، وربما كان البحترى على شىء من الوسامة ، فإنه ينسب إلى قومه من اليمن الفصاحة ونضارة العود ، إذ يقول :

نحن أبناء يعرب أعرب النا ... س لساناً وأنضر الناس عودا

ويروى صاحب الأغانى[4] أن البحترىّ كان من أوسخ خلق الله ثوباً .

---

(١) ذنوب الوجه : فى وجهه ذنب ، يعنى لحيته .
(٢) القفد : الصفع .
(٣) النضو: المهزول . والجريرة : الذنب . وجرت : ظلمت .
(٤) ١٨ : ١٧٠ .

ونحن نشكّ فى هذه الرّواية ، ويؤكد شكّنا أنه كان يجالس الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة ، وهؤلاء ، ولا ريب ، ينفرون من وسخ الثياب ، بل نؤكد أنه كان نظيف الثوب نظافة يستطيع بها أن ينادم خليفة ، وأن يمنحه الخليفة بعض خلعه ، كما يدلّ على ذلك قول البحترى للمعتز :

وأكثرت زادى من بدور تتابعت   لجودك ، فيهن اللجين المطرّق[١]
ومن خلع فازت بلبسك ، فاغتدى   لها أرج من طيب عرفك يعبق[٢]

ويروى صاحب الأغانى أيضاً أن البحترى كان « أبغض الناس إنشاداً : يتشادق ، ويتزاور فى مشيته : مرّة جانباً ، ومرّة القهقرى ، ويهزّ رأسه مرّة ، ومنكبيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كلّ بيت ، ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المستمعين ، فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنت ، هذا والله ما لا يُحسنُ أحد أن يقول مثله » . وقد كلفه ذلك أن سخر منه أحد ندامى الخليفة المتوكل وهو أبو العنبس الصيمرى ، وصنع بإغراء الخليفة شعراً ساخراً ماجناً، على وزن قصيدة البحترىّ التى كان ينشدها ، ولم يكد البحترى يتمّ إنشاد قصيدته حتى ألقى عليه القصيدة الساخرة به[٣] .

---

(١) اللجين : الفضة . وطرق المعدن : رققه .

(٢) الأرج : الريح الطيبة ، كالعرف . وعبق المكان بالطيب : انتشرت رائحة الطيب فيه .

(٣) الأغانى ١٨ : ١٧٣ . أما قصيدة البحترى فى المديح فقد كان مطلعها :

عن أى ثغر تبتسم   وبأى طرف تحتكم

ومنها :

قل للخليفة جعفر الـ   ـمتوكل بن المعتصم
المجتدى للمجتدى   والمنعم بن المنتقم :
اسلم لدين محمد   فإذا سلمت فقد سلم

وأما القصيدة الساخرة فقد جاء فيها :

والله حلفة صادق   وبقبر أحمد والحرم
وبحق جعفر الإما   م ابن الإمام المعتصم
لأصيرنك شهرة   بين المسيل إلى العلم
حيث الطلول بذى سلم   حيث الأراكة والخيم
يا ابن الثقيلة والثقيـ   ـل على قلوب ذوى النعم ...

نشأ البحترىّ فقيراً ، كما اعترف بذلك فى شعره ، إذ يقول :

وعيرتنى سجال العـــدم جاهلة والنبع عريان ، ما فى فرعه ثمر [١]

ولكنه لم يدع هذه النشأة تحول بينه وبين نيل الغنى ، حتى صار له قهارمة وكتاب [٢] ، وامتلك قرية كانت موقوفة على أولاده بباب منبج [٣] .

والسرّ فى ذلك يعود إلى ما كان بين جنبيه من عزيمة قوّية ، وهمّة تكلفه الجليل ، وتحمله على المشاقّ ، فعزيمته القويّة هى التى دفعته إلى الرحلة والأسفار. وقد قام البحترى بالكثير منها ، لا يثنيه عنها إلا أن ينال أمله ، وتسمع روح عزمه ومضائه فى قوله :

فإنى إن أزمعْ غدوًّا لطية أغلسْ ، وإن أجمع رواحاً أهجّر [٤]

هذه العزيمة قد اقترن بها طموح لا يرضى بالواقع ، ولا يقنع بما بين يديه ، وكانت حياته دليلا على ذلك ، وقد صوّر لنا ذلك الطموح إذ يقول :

وأرى همّتى تكلفنى حمـ ل أمور خفيفهن ثقيلُ
ولو انى رضيت مقسوم حظى لكفانى من الكثير القليلُ

وكان يعتقد أنّ الضعيف الواهن هو هذا الذى إن وجد أدنى ما يكفيه فقد عزيمته ، ورضى بما نال :

والفسل يسلبه عزيمتــه أدنى وجود كفاية تسعه [٥]
لا يلبث الممنوع تطلبـــه حتى يثوب إليك ممتنعه [٦]

فهو لا يرى القناعة فى المجد والغنى فضيلة، ولا يرى أن يلقى المرء بالسلاح ، وهو فى ميدان الجهاد لنيل الآمال ، إذا عرضت له صعوبة ؛ لأن العزيمة القوية تذللها :

---

(١) النبع : شجر تتخذ منه السهام والقسى .

(٢) العمدة ١ : ٦ . والقهارمة : جمع قهرمان وهو : الوكيل أو أمين الدخل والخرج. والكلمة من الدخيل .

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ١٧٩ .

(٤) أزمع الأمر : أظهر فيه عزماً . والغدو : التبكير . والطية : النية والحاجة . وغلس : مشى فى ظلمة آخر الليل . وأجمع: أعزم . والرواح : الذهاب فى العشى . وأهجر : أمشى فى الهاجرة ، وهى : نصف النهار فى القيظ .

(٥) الفسل : الضعيف لا رأى له .

(٦) يثوب : يعود .

ما زال لى من عزمتى وصريمتى ... سند يثبت وطأتى أن تدحضا[١]

لست الذى إن عارضته ملمة ... ألقى إلى حكم الزّمان وفوّضا[٢]

وكان يؤمن بأنّ الواجب هو العمل والجهاد ، أما النتائج فليس إليه أمرها :

ذرينىَ من ضرب القداح على السّرى ... فعزمىَ لا يثنيه نحس ولا سعد[٣]

سأحمل نفسى عند كلّ ملمة ... على مثل حدّ السيف أخلصه الهند

فإن عشت محموداً فمثلى بغى الغنى ... ليكسب مالاً ، أو ينثّ له حمد[٤]

وإن متّ لم أظفر فليس على امرئٍ ... غداً طالباً إلاّ تقصيه والجهد[٥]

ومع ذلك كان البحترىّ متفائلا ، لا يرى الشدائد دائمة لا تريم ، ولكنها عما قليل تنجلى :

هل الدّهر إلاّ غمرة وانجلاؤها ... وشيكاً ، وإلا ضيقة وانفراجُها[٦]

تقضّى الهمومُ ، لم يلبِّث طروقها ... زَماعى ، ولم يغلق علىّ رِتاجُها[٧]

كان البحترى عارفاً بقدر نفسه ، مغروراً بشعره ، يقول لأحد ممدوحيه :

وأعلم أن السبل ما فاجأتكمُ ... بزورٍ من الأقوام مثلى ، ولا وفد[٨]

وكانت معرفته بقدر نفسه تدعوه إلى البعد عن مواطن الإهانة ، ولقد ثار عندما أهين فى مجلس المتوكل ، وعزم على أن يعود إلى بلده ، مضحياً بالمال والجاه[٩].

---

(١) الصريمة : العزيمة . ودحض : زلق .

(٢) عارضه : قاومه . والملمة : النازلة الشديدة .

(٣) ذرينى : دعينى . والقداح : جمع قدح ، وهو : السهم ، وكان للقداح أسماء ، وكان من عادة العرب أن يستشيروا هذه السهام قبل أن يقوموا بأعمالهم ، فإن خرج لهم السهم الرابح انصرفوا إلى العمل ، وإلا انصرفوا عنه . والسرى : سير الليل . وثناه : صرفه عن حاجته .

(٤) نث الحمد : أفشاه .

(٥) تقصى الشىء : بلغ الغاية فى البحث عنه . والجهد : الطاقة .

(٦) الغمرة : الشدة . والوشيك : السريع . والانفراج : الانكشاف .

(٧) تقضى : تتقضى . يلبث : يؤخر . وطروقها : ورودها . والزماع : الثبات والعزم . والرتاج : الباب المغلق .

(٨) الزور : السيد والرئيس .

(٩) راجع الأغانى ١٨ : ١٧٣ و ١٧٤ .

هل كان البحترىّ بخيلا ؟ مضى أكثر المؤرخين على أنه بخيل ، ويروون ما يدل على بخله[١] ، ووقف صاحب[٢] البحترىّ موقف المنكر على المؤرخين هذا الزعم ، واجداً فى شعر الشاعر ما يثبت كرمه ، كقوله للمتوكل :

مَن شاكر عنى الخليفة فى الذى أولاه : من طَوْلٍ، ومن إحسان[٣]
حتى لقد أفضلت من أفضاله ورأيت نهج الجود حيث أرانى[٤]
ملأت يداه يدى ، وشرّد جوده بخلى ، فأفقرنى ، كما أغنانى
ووثقت بالخلق الجميل معجلا منه ، فأعطيت الذى أعطانى

وقوله للفتح بن خاقان :

أعن على كرم أخنى على نشبى وهمّة اخلقت أخلاقَ الجددا[٥]

ويروى عن القاضى التنوخىّ فى نشوار المحاضرة أن المعتزّ بعدما استتبت له الخلافة ، ودخل عليه البحترىّ ، وأنشده ، أعطاه ستة آلاف دينار ، وقال له : وكأنّى بك وقد بادرت ، فاشتريت غلاماً وجارية وفرساً وفرشاً ، فأتلفت المال . لا تفعل ؛ فإنّ لك فيما تستأنفه من أيامك معنا ، ومع وزرائنا ، وأسبابنا ، إذا علموا موقعك منا ، غناء عن ذلك[٦] .

ونحن مع صاحب البحترى ، لا نرى الشاعر بخيلا ، معتمدين فى ذلك لا على شعره الذى يتحدث فيه عن كرمه ، فكثيراً ما يقول الشعراء ما لا يفعلون ، ولكنا نعتمد على قصيدة ابن الرومى الذى ما كان يمكن أن يفوته تسجيل هذا الخلق ، الذى أبدع فى تصويره ، حين قال يهجو :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

(١) المرجع السابق ص ١٧٠ .
(٢) جرجس كنعان ص ١٩ .
(٣) الطول : الفضل والعطاء .
(٤) أفضل عليه : أناله من فضله ، وأحسن إليه . والنهج : الطريق الواضح .
(٥) النشب : المال . وأخنى عليه : أهلكه . وأخلق الثوب : صيره بالياً .
(٦) البحترى ص ١٩ .

ولا سيما أن البحترى كان يغيظه ؛ فيرسل إليه صرة من المال عقب كل هجاء ينظمه ابن الرومى فيه ؛ فكانت الفرصة سانحة لتسجيل ابن الرومى هذا البخل ، ولكنه لم يفعل .

أما ما أورده صاحب الأغانى من هجائه لضيف تناول الطعام عنده ، وتقتيره على أخ له وغلام ، فقد يكون لسوء تناول الضيف للطعام ، أو لشدة شراهته ، ولبطالة أخيه وغلامه ، وأنهما لا يجيدان عملا يستحقان عليه الطعام .

من أخلاق البحترىّ الشجاعة ، وقد حارب تحت لواء بعض القواد ، وقال له من قصيدة :

وأنا الشجاع ، وقد بدا لك موقفى بعقرقس ، والمشرفيــة شهدى [١]

ورأيتنى ، فرأيت أعجب منظـــر ربّ القصائد فى القنا المتقصد [٢]

كما كان يحب الأخذ بالثأر ، وقصيدته التى قالها عقب مقتل المتوكل ، وتلك التى قالها بعد مقتل يوسف الثغرى أحد قوّاد المسلمين فى حرب الروم ، فيهما دلالة على تمكن هذا الخلق فيه .

كان البحترى يؤمن بالعقيدة التى بينها عمر بن الخطاب فى قوله : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرّزق ، وهو يقول : اللهم ، ارزقنى ، وقد علم أنّ السماء لا تمطر ذهباً ، ولا فضة » ، ولذا كان برغم إيمانه بالقضاء والقدر ، وتعييره من لا يدين بهما ، كقوله فى هجاء أحمد بن صالح :

عُليجٌ ، يدين بأن لا إله وأن لا قضاء، وأن لا قدر

لم يدع هذه العقيدة تحول بينه ، وبين الجدّ فى طلب المال والغنى ، إذ يقول :

لست بالواهن المقيم ، ولا القـــا ئل يوماً : إنّ الغنى بالجدود [٣]

والنجاح ، كما يؤمن به البحترى ، مرهون بالجدّ والعمل :

والرّزق لليقظ المشبع رأيه بالعزم ، لا للعاجز المأفون [٤]

(١) عقرقس : اسم واد فى بلاد الروم . معجم البلدان ٦ : ١٩٦ . والمشرفية : السيوف .

(٢) المتقصد : المنكسر .

(٣) الجدود : الحظوظ .

(٤) المأفون : ضعيف الرأى .

وعقيدته فى الرزق هى التى جعلته يشرق فى البلاد ويغرب ، ويجوب أرجاء قسم عظيم من المملكة الإسلامية :

تقاذفُ بى بلاد عن بلاد كأنى بينها جمل شرودُ[١]
وبالساجور من ثعل بن عمرو صناديدٌ من الفتيان صيدُ[٢]
إذا سجع الحمام هناك قالوا لفرط الشوق : أين ترى الوليد؟[٣]

وما كان يطمئن به المقام إلا حيث يجد السعادة والحظ الجزيل :

وأحبّ آفاق البلاد إلى الفتى أرض ينال بها كريم المطلب

٣ ـ علاقته بعصره

رأينا أن البحترى قد اتصل بخلفاء بنى العباس ورجال دولتهم ، وكان الشاعر يتشيع لبنى العباس، ويرى خلافتهم حقًّا لا مرية[٤] فيه ، وقد يبالغ فى ذلك ، حتى يعدّ خارجاً على الإسلام هذا الذى لا يعتقد أن خلافة العباسيين حق ، ولو صام وصلى ، فهم أبناء العباس عم النبىّ ، استسقى به عمر بعد أن حبس المطر عن المدينة :

شرفاً بنى العباس، إن أباكمُ عمّ النبىّ ، وعيصه المتفرّعُ[٥]
وأرى الخلافة ، وهى أعظم رتبة حقًّا لكم ، ووراثة ما تنزعُ
أعطاكموها الله عن علم بكم والله يعطى من يشاء ويمنع

ويقول :

مخالف أمركم لله عاص ومنكر حقكم لاق أثاما
وليس بمسلم من لم يقدّم ولايتكم ، ولو صلى ، وصاما

أما بنو أمية فقد طلبوا الخلافة فجوراً وفسقاً ، ولذا هو مبتهج برجوع الأمر

---

(١) شرود : نافر .
(٢) الساجور : نهر بمنبج . وصناديد : جمع صنديد ، وهو : السيد الشجاع . والصيد : جمع أصيد وهو المتكبر .
(٣) سجع : غنى .
(٤) المرية : الجدل والشك .
(٥) العيص : الأصل ، ومنبت خيار الشجر .

إلى العباسيين ، لأن الأمر عاد إلى أهله بينما استقر الهوان فى بنى مروان :

وأنتم بنو العباس عمّ محمد ... يمين قريش ، إذ سواكم شمالها
لكم إرثها ، والحقّ منها ، ولم يكن ... لغيركمُ إلا اسمها وانتحالها(١)
وإن بنى حرب ومروان أصبحوا ... بدار هوان قد عراهم نكالها(٢)
يغضون أبصاراً مغيظاً ضميرها ... ويخفون ألحاظاً مبيناً كلالها(٣)

ولكنه لم يكن ناصبيـًّا كذلك(٤) ، برغم أنه قد جالس المتوكل الذى كان يكره علىّ بن أبى طالب . ويبتهج لمن يسبه ، ويغدق العطاء على من ينظم الشعر فى هجائه . ولم نعثر فى شعر البحترى أيام المتوكل أو غيره على ما يدلنا أنه خاض فى علىّ وسبه ، بل لعله كان يتألم لما أصاب العلويين فى ذلك العهد من اضطهاد وظلم ، حتى إذا جاء المنتصر ، وردّ الحقوق إليهم ، فرح الشاعر ، وأثنى عليه بذلك ، بل كان يحنو على علىّ بن أبى طالب ويعظمه ، ويراه أحقّ الناس بالخلافة بعد رسول الله . ذم بعض معاصريه علىّ بن أبى طالب ؛ فقال له البحترىّ :

يا سوأتا من رأيك العازب ... وعقلك المستهتر الذّاهب(٥)
إن وقفت سوقك ، أو أكسدت ... بضاعة من شعرك الخائب(٦)
أنحيت ، كى تنفقها ، زارياً ... على علىّ بن أبى طالب(٧)

ويقول :

كنا نكفر من أمية عصبة ... طلبوا الخلافة فجرة ، وفسوقا
ونقول : تيم قرّبت ، وعدّيها ... أمراً بعيداً حيث كان سحيقا(٨)
ونلوم طلحة والزبير كليهما ... ونعنف الصدّيق والفاروقا

(١) انتحل الشىء : ادعاه لنفسه ، وهو لغيره .
(٢) عراهم : ألم بهم . والنكال : ما يجعل عبرة للغير .
(٣) الكلال : التعب والإعياء .
(٤) الناصبى : هو من ناصب أهل البيت العداء .
(٥) العازب : الغائب . والمستهتر : كثير الأباطيل .
(٦) أكسدت : كسدت .
(٧) أنحى عليه : أقبل عليه . وزاريا : عائباً .
(٨) تيم : قبيلة أبى بكر الصديق . وعدى : قبيلة عمر بن الخطاب . والسحيق : البعيد .

وهمُ قريش الأبطحين إذا انتمَوْا — طابوا أصولاً فيهم وعروقا

فهو يعدّ الأمويين عصبة كافرة فاجرة ، ويرى أبا بكر وعمر قد نالا أمراً بعيداً ما كان لهما أن ينالاه ، ويلوم طلحة والزبير لأنهما خرجا على بيعة علىّ . وذلك مع إيمانه بأنّ هؤلاء جميعاً يقفون فى القمة من قريش .

كان رأى البحترىّ فى الأحداث السياسية رأى من بيده الغلب والسلطان ، وذلك طبعىّ لشاعر يتكسب من شعره ، وليس له مورد رزق سوى هذا الشعر ، فإذا عزم المتوكل على الانتقال إلى دمشق ، واتخاذها عاصمة لملكه ، مضى البحترىّ يمدحها ، ويلمز العراق ، ويقول :

قد رحلنا عن العرا — ق ، وعن قطبها النكد
حبذا العيش فى دمش — ق ، إذا ليلها برد
حيث يستقبل الزّما — ن ، ويستحسن البلد
سفر جدّدت لنا الل — هوَ أيامه الجدُد
عزم الله للخلي — فة فيه على الرّشد

فإذا أزمع العودة إلى العراق أخذ الشاعر يطرى هذه العودة قائلا :

أتى من بلاد الغرب فى عدد النقا — نقا الرّمل من فرسانه وخيوله (١)
فأسفر وجه الشرق ، حتى كأنما — تبلج فيه البدر بعد أفوله (٢)
وقد لبست بغداد أحسن زيها — لإقباله ، واستشرفت لعدوله (٣)
ويَثنيه عنها شوقه ونزاعه — إلى عرض صحن الجعفرى وطوله (٤)
إلى منزل فيه أحباؤه الألى — لقاؤهم أقصى مناه وسوله
محلّ يطيبُ العيش رقةُ ليله — وبرد ضُحاه ، واعتدال أصيله (٥)

---

(١) النقا : القطعة من الرمل المحدودبة .

(٢) سفر : أضاء . وتبلج : ظهر ، واتضح . والأفول : الغروب .

(٣) استشرف الشيء : رفع بصره لينظر إليه . وعدوله أى تركه رأيه الأول فى اتخاذ دمشق عاصمة له .

(٤) ثناه عنه : كفه وصرفه . والنزاع إلى الشيء : الشوق إليه . والجعفرى : قصر بناه المتوكل فى سر من رأى .

(٥) الأصيل : الوقت بين العصر والمغرب .

ونراه إذا ولّى المتوكل أبناءه الثلاثة أولياء للعهد ، يعلن اغتباطه بذلك قائلا :

حاط الرعية حين ناط أمورها بثلاثة بكروا ولاة عهود
كانوا أحقّ بعقد بيعتها ضحى وبنظم لؤلؤ تاجها المعقود

مع أن حادث الرشيد فى تولية بنيه الثلاثة ولاية العهد ، وما جرّه ذلك من حروب بين الأمين والمأمون — كان لا يزال حيًّا فى النفوس ، جديراً أن يصرف الخلفاء عن تكريره .

ولما أراد المستعين تولية ابنه العباس ولاية العهد قال البحترى :

وحسبك أنه فى كلّ حال شبيهك يا أمير المؤمنينا
يُسرّ المسلمون بأن يروه لديك ولىّ عهد المسلمينا
فجدّد عقد بيعته تجدّد لهم خفضاً من الدّنيا ولينا (١)

سيطرت روح العصر على البحترى ، فدفعته إلى حبّ المال ، ليستمتع بلذائذ الحياة ، ودفعه حبّ المال إلى إرضاء من بيده السلطان ، فربما هجا اليوم من مدحه بالأمس ، أو مدح اليوم من هجاه بالأمس : هجا المنتصر ودعا عليه ألا يهنأ بالخلافة ، ثم مدحه : ومدح ابن الخصيب الذى كان وزيراً للمستعين ، فلما غضب عليه الأتراك ، واستصفوا ماله ، حرّض الخليفة عليه فقال :

لابن الخصيب الويل ؛ كيف انبرى بإفكه المودى ، وإبطاله (٢)
كاد أمين الله فى نفسه وفى مواليه وفى آله (٣)
فأنزل الله به نقمة غيرت النعمة من حاله
يا ناصر الدين ، انتصر موشكاً من كائد الدين ومغتاله
فهو حلال الدّم والمال ، إن نظرت فى باطن أحواله

ومدح المستعين ، فلما آلت الخلافة إلى المعتز هجاه .

أحبّ البحترى المال ، وأخذ عن المترفين من أهل عصره أيضاً حبّ

---

(١) خفض العيش : سهل ، وكان هنيئاً .

(٢) انبرى : تعرض . والإفك : الكذب . والمودى : المهلك . وأبطل الرجل : أتى بما لا حق له فيه .

(٣) كاده : مكر به وخدعه . ويريد بأمين الله : الخليفة . وبالموالى : جنده .

الاستمتاع بالحياة ، والتنعم بلذائذها ، وقد حفظ لنا فى شعره صورة من صور لهوه ومرحه ، فهو محبّ لابنة الكرم ، مولع بالغناء ، مغرم بالساقى الجميل ، فهو يذكر المدام فى الربيع وفى الخريف ، وحين تدجن السماء وتتراكم السحب ، متخذاً من الطبيعة نفسها مغرياً له على رشف الكئوس ، وكانت أيام العيد والمهرجان فرصاً سانحة للبحترى يقضيها بين الخمر والغناء ، ولم يكن لديه شىء يسرّه أكثر من جلسة على ضفاف نهر ، يحيط به الورد والزهر ، حيث الماء والسماء ، والنسيم العليل يحمل أريج الأزهار ، ويختلط ذلك كله بالغناء وشرب الراح ، فيطرب ما شاء له الطرب ، وقد يجد من تمام سعادته أن يبعث إلى المخلصين من أصدقائه راجياً منهم أن يشاركوه فى هنائه بحضور مجلسه .

وهكذا اتصل البحترى بسياسة عصره ، واتخذ مذهب المترفين من أهل هذا العصر مذهباً له ، كما شارك الطبقة المثقفة فى الأخذ بنصيب كبير من الثقافة الشائعة يومئذ ، فإنه لم يقف عند الحدود التى نالها فى نشأته الأولى ، بل ظفر بحظ كبير من علوم أهل عصره .

أما علمه باللغة فيكفى أن ترجع إلى ديوانه وحماسته ، لتعرف مقدار علمه بها ، وعنايته بأمرها ، عناية جعلته دقيقاً فيما يستخدمه من الكلمات .

وكان علمه بالنحو وقواعد التصريف ضرورياًّ لشاعر يريد أن يأخذ مكانته بين شعراء عصره ، وبخاصة فى هذا العصر الذى شاع فيه اللحن ، وصار من الضرورى لمن يريد التفوّق فى الأدب أن يدرس النحو والصرف ، ليسلم من الخطأ ، فينجو من ألسنة الناقدين ، وإن كان لم يتعمق فى تلك القواعد ، فالتعمق فيها ليس فى مذهبه من مهام الأديب .

عصمته هذه الدراسة من الخطأ ، مضافاً إليها نشأته فى منبج وباديتها ، حيث الأعراب الذين لم تكن لغتهم قد فسدت بعد . ولهذا قلت مآخذ النقاد عليه من هذه الناحية (١) ، وكانت الضرورة هى التى دفعته إلى مثل مدّ المقصور وقصر الممدود ، وقطع همزة الوصل ، ووصل همزة القطع ، وما إلى ذلك .

(١) ذكر أبو العلاء المعرى هذه الأخطاء فى كتابه : عبث الوليد .

ومما لا ريب فيه أن البحترىّ كان لا يجهل وزن الشعر ، ولا علم عَروضه وقوافيه ، وقد وضع الخليل بن أحمد أسس علمهما ، وعُنى الناس بهما ، لطرافتهما ، وقد سلم شعر البحترى فى جملته عن عيوب العروض والقافية ، إلا هنات نرجح أنها حدثت من تحريف وقع فى رواية شعره ، كهذا البيت ، إذ ورد :

ولماذا تتبع النفس شيئاً   جعل الله الفردوس منه بواء[١]

فالرّواية الصحيحة لهذا البيت ما نقله الآمدى فى كتابه : «الموازنة» ، وهى : « جعل الله الخلد منه بواء »[٢] .

واتصل البحترىّ اتصالاً وثيقاً بالأدب الموروث والأدب المعاصر ، وكان من نتائج اتصاله بالأدب الموروث أن اختار كتابين منه سوف نتحدث عنهما ، كما كان يعنى بأن يقف بنفسه على مواطن القوّة أو الضعف فى الشعر : حكى عن البحترىّ أنه قال : فاوضت علىّ بن الجهم[٣] فى الشعر ، وذكر أشجع السلمىّ[٤] ، فقال : إنه كان يخلى ، فلم أفهمها عنه ، وأنفت أن أسأله عنها ،

(١) البواء : المساوى .   (٢) الموازنة بين الطائيين ص ١٧٦ .

(٣) على بن الجهم: شاعر مجيد عالم بفنون الشعر، اختص حقبة من الزمن بالمتوكل، ثم هجاه، فنفاه إلى خراسان وكتب إلى طاهر بن عبد الله أنه إذا ورد عليه صلبه يوماً، فوصل إلى شاذياخ نيسابور، فحبسه طاهر، ثم أخرجه، فصلبه مجرداً نهاراً كاملا، فقال فى ذلك :

لم ينصبوا بالشاذياخ صبيحة الـ   إثنين مسبوقاً ولا مجهولا
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم   شرفاً وملء صدورهم تبجيلا

ثم رجع إلى العراق فإلى الشام، ثم خرج من حلب متوجهاً إلى العراق فخرجت عليه وعلى جماعة معه خيل من بنى كلب فقاتلهم قتالا شديداً ولحقه الناس وهو جريح بآخر رمق . وتوفى فى بغداد سنة ٢٤٩ هـ ولما نزعت ثيابه بعد موته وجدت فيها رقعة فيها قد كتب فيها :

وارحمتا للغريب فى البلد الـ   نازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا   بالعيش من بعده، ولا انتفعا
كان عزيزاً بقرب دارهم   حتى إذا ما تباعدوا خشعا
يقول فى نأيه وغربته   عدل من الله كل ما صنعا

وله ديوان شعر نشر أخيراً فى دمشق بتحقيق الأستاذ خليل مردم بك .

(٤) أشجع السلمى : هو أبو الوليد أشجع بن عمرو السلمى من بنى سليم : شاعر فحل ، كان معاصراً لبشار . ولد باليمامة ، ونشأ فى البصرة ، ومدح البرامكة ، وانقطع إلى جعفر بن يحيى ، فقربه من الرشيد ، فأعجب به الرشيد ، فأثرى ؛ وحسنت حاله ، وعاش إلى ما بعد وفاة الرشيد .

فلما انصرفت فكرت فيها ، ونظرت فى شعر أشجع ، فإذا هو ربما مرّت له الأبيات مغسولة ، ليس فيها بيت رائع [١] .

وعرف البحترىّ ما وصل إليه من تاريخ العرب ، وبخاصة قومه طيئ ، وقد أخذ المعرى عليه قوله :

ومن إرثكم أعطت صفية مصعباً جميل الأسى ، لما استحلت محارمه

علق أبو العلاء على هذا البيت، فقال : «بنى أبو عبادة هذا المعنى على أن صفية ابنة عبد المطلب كانت توصف بالصبر ، ولم يرو عنها شيء من ذلك ، بل ذكر أن ولدها الزّبير بارز رجلا بين يدى النبيّ فجزعت من ذلك ، وقالت يا رسول الله ، يقتل ابنى ، فقال : ابنك يقتله ، فقتله الزبير . وإنما الموصوفة بالتصبر أسماء ابنة أبى بكر ،وهى أم عبد الله بن الزبير. وليست أم مصعب» [٢].

هذا وقد جرى كثير من المؤرخين للبحترىّ على أنه لم يدرس الفلسفة ، ولا مسائل المنطق ، مستدلين على ذلك بقوله وهو يرد على عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر :

كلفتمونا حـــدود منطقكم فى الشعر يلغى عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ منطق ما نوعه ، وما سببه

وليس فى ذلك دليل على ما يدّعون ؛ لأن الشاعر يرى فى هذه الأبيات أن للشعر طريقاً ، وللمنطق آخر ، وأنه ليس من الضرورى أن يتبع الشعر حدود المنطق ، لأن امرأ القيس زعيم الشعراء لم يكن يعرف المنطق ، ولا خضع شعره لقواعد هذا العلم. وذلك القول لا يدلّ على أن البحترىّ لم يعرف الفلسفة والمنطق.

وإنى أستبعد جهل البحترىّ لهذه المادة التى كان لها رواج كبير فى عصره ، وأرى أنه قد تأثر بالمنطق تأثراً بيناً عندما ألف كتابه : «الحماسة»، واتبع فيه تقسيماً دقيقاً أعمق من تقسيم أبى تمام لحماسته ، بل إنه فى هذه القصيدة نفسها جارى عبيد الله فى بعض مسائل الفلسفة ، فقسم العقل إلى مطبوع ومكتسب :

والعقل من صيغة وتجربة شكلان : مولوده ، ومكتسبه

---

(١) العمدة ١ : ١٣٧ .

(٢) عبث الوليد ص ٢٠٥ .

الفصل الثالث

جوانب البحترى

١ ــ آثاره

ترك لنا البحترى :

١ ــ ديواناً ضخماً ظل غير مرتب إلى أيام أبى بكر الصولى[1] ، فجمعه ورتبه على الحروف ، وجمعه أيضاً علىّ بن حمزة الأصبهانى[2] ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع[3] . وما بين أيدينا من نسخ ديوانه يحتاج إلى تحقيق دقيق وشرح واف .

٢ ــ كتاب الحماسة ، وقد اختاره البحترى من شعر نحو ستمائة شاعر ، أكثرهم من الجاهليين والمخضرمين ، وقسمه أربعة وسبعين ومائة باب ، ترجع فى الحقيقة إلى ثلاثة أبواب : واحد للحماسة ، وثان للأدب ، وثالث للرثاء ؛ فأنت تستطيع أن تردّ الأبواب السبعة والعشرين الأولى فى حماسة البحترىّ إلى معنى واحد ، هو الحماسة ، والأبواب الباقية ما عدا الأخير منها تدخل كلها فى الأدب والاجتماع ، والباب الباقى لمراثى النساء . بيد أن البحترىّ فصّل هذه الأبواب الثلاثة تفصيلاً بلغت به العدد الذى ذكرناه ؛ إذ أنه ترجم للمعانى التى تندرج تحت الباب الواحد بأبواب خاصة .

تمتاز حماسة البحترىّ بغزارة المعانى وكثرة الشعر الذى يتعلق بالأدب والأخلاق ، فهو أكثر ما فيها ، كما أنّ الحماسة وأمور الحرب

---

(١) أديب جماع للكتب ، توفى سنة ٣٣٠ هـ .

(٢) أخبارى ، جمع ديوان أبى تمام على الأنواع أيضاً .

(٣) معجم الأدباء ١٩ : ٢٥١ .

فى حماسة أبى تمام قد أخذت أكبر عنايته بالنسبة إلى الأبواب الأخرى التى ترجم لها فى كتابه : من أدب ، ونسيب ، ورثاء ، وأضياف ، ومديح ، وملح ، ومذمة نساء . وإذن فنحن نستطيع القول بأن حماسة أبى تمام أكثر أبواباً من حماسة البحترىّ ، وإن كان الأدب والأخلاق عند البحترىّ أكثر وأغزر ، ويصح لنا أن نرجح أن البحترى سمّى كتابه بالحماسة اقتداء بأبى تمام ، وإلا فربما كان من المناسب أن يدعو كتابه : كتاب الأدب ، لأنه أكثر ما فى اختياره ، كما أنّ أبا تمام دعا كتابه بالحماسة ، لأنها أكثر ما فى الكتاب بالنسبة إلى الأبواب الباقية . وربما كان الدافع لهما إلى تسمية كتابيهما بالحماسة أنهما بدآ مختاراتهما بها .

يذكر أبو تمام كل ما يتعلق بالحماسة أو الأدب مثلا تحت باب واحد ، أما البحترىّ فيلتزم جانب التفصيل والتقسيم . تقرأ باب الأدب مثلا فى حماسة أبى تمام ، فترى فيه من غير ترتيب ولا تفصيل شعراً فى الحلم ، وفى التسامح مع الصديق ، وفى قطع من يرتاب فى ودّه ، إلى ما سوى ذلك ، من غير أن يترجم لكل معنى ، ومن غير أن يضع كل ما يتعلق بالمعنى الواحد بعضه بجوار بعض ، وإذا قرأت البحترىّ رأيته يفصّل : فباب لمؤاخاة الكرام ، وآخر لترك مؤاخاة اللئام ، وثالث لابتلاء الرجال قبل مؤاخاتهم ، ورابع فيمن تتهم مودّته ، ولا يوثق بإخائه ، وهكذا يمضى مبوّباً ، مختاراً من الشعر ما يدلّ على المعنى الذى يريده وحده .

لكل من طريقة أبى تمام والبحترىّ مزيّة : فطريقة أبى تمام لها فضلها من ناحية أنه يعطيك غالباً القصيدة كاملة ، أو ما يختاره منها ، من غير أن يضطره التفصيل — كما اضطر البحترىّ — إلى تجزىء القطعة ، وتفريق شملها ، والاقتصار فى كثير من الأحيان على بيت واحد فحسب ، أو حذف الكثير من القصيدة ، لأنها لم تدخل فيما عقده من أبواب . وطريقة البحترىّ لها ميزاتها من ناحية التقسيم ، فهو يعطيك صوراً مختلفة فى الأساليب ، وطريقة الأداء للمعنى الواحد . ولنضرب لذلك مثلا يوضح ما ذكرناه : روى أبو تمام

فى حماسته فى باب الأدب قصيدة معن بن أوس التى مطلعها :

لعمرك ما أدرى ، وإنى لأوجل على أينا تعدو المنية أول [١]

ورواها كلها ، بينما فرّق البحترىّ أوصالها ، فذكر بيتين منها فى باب قطع من اعترض فى ودّه ، وهما :

وكنتُ إذا ما صاحبٌ رام هجرة وبدّل سوءاً بالذى كنت أفعل
قلبت له ظهر المجنّ ، فلم أدم على ذاك إلاّ ريثما أتحوّل

وروى فى باب صحّة المودّة ، وحفظ الإخاء خمسة أبيات وهى :

وإنى أخوك الدّائم العهد لم أحل إذا حال دهر ، أو نبا بك منزل [٢]
أحارب من حاربت من ذى عداوة وأحبس مالى إن َغرمتَ، فأعقل [٣]
وإن سؤتنى يوماً صفحت إلى غد ليعقب يوماً منك آخر ُمقبل
كأنك تشفى منك داء مخامراً أذاتى ، وما فى نيتى لك معضل [٤]
ستقطع فى الدّنيا إذا ما قطعتنى يمينك ، فانظر أىّ كفّ تبدّل

وباقى القصيدة لم يذكره البحترىّ ، والأمثلة على ما ذكرناه كثيرة .

هذا ، ولعلّ القصد الخلقىّ كان هدفاً من أهداف البحترىّ ، وربما كان هو الباعث الذى حداه إلى ترك ما أورده أبو تمام فى حماسته من الغزل والهجاء ومذّمة النساء .

يشترك أبو تمام والبحترىّ فى كثير من الشعراء الذين رويا عنهم ، وقد يختار أبو تمام قطعة لشاعر ، ويختار البحترىّ لهذا الشاعر بعينه قطعة غيرها . وقد تروق البحترىّ قطعة سبق أن اختارها أبو تمام ، فيحرص البحترىّ على ذكرها فى اختياراته . كما تشترك الحماستان فى أنّ الكلمات الغريبة قليلة فيهما ؛ لأنّ السهولة كانت من مميزات العصر العباسىّ . وتشتركان أيضاً فى كثرة عدد

---

(١) وجل يوجل : خاف .

(٢) حال : تحول من حال إلى حال . ونبا به : لم يوافقه .

(٣) عقل القتيل : أدى ديته .

(٤) خامره : خالطه . والأذاة : الأذى . وأعضل الأمر : استغلق .

الشعراء الذين اختار لهم صاحبا الحماستين ، فالبحترىّ قد اختار حماسته من شعر نحو ستمائة شاعر ، وأبو تمام قد اختار من شعر نحو خمسمائة .

ووضع البحترىّ حماسته تنفيذاً لرغبة الفتح بن خاقان ، وذاك يدلّ على أن وضعه للكتاب كان قبل مقتل الفتح ، أى حين كانت سنه حول الأربعين ، أو قبلها .

أما السرّ فى شهرة حماسة أبو تمام حتى جرفت حماسة البحترىّ فلعله يعود إلى أن كثرة التفصيل والتقسيم التى اتبعها البحترى أضاعت بهجة عرض القصيدة كاملة ، هذا إلى كثرة الفنون التى عرضتها حماسة أبى تمام كما ذكرنا .

٣ ــ كتاب معانى الشعر ، ولم يصل إلينا ، ولكنا نستطيع أن نفهم ، بالقياس على الكتب التى وضعت فى معانى الشعر ، وبقيت حتى وصلت إلينا ، ككتاب معانى الشعر للأشناندانى ــ أنّ كتاب البحترىّ كان يضمّ بين دفتيه أبياتاً من الشعر العربى بها كثير من الألفاظ اللغوية الغريبة ، وكثير من الألفاظ التى تحتمل معانى عدّة ، ثم يتكفل البحترىّ بشرح ذلك كله . والكتابان يدلاّن على مدى ما وصلت إليه الثقافة الأدبية للبحترىّ من اتساع وعمق .

٢ ــ مذهبه فى الشعر

قال البحترىّ فى إحدى قصائده :

ومعان لو فصّلتها القوافى　　هجنت شعر جرول ولبيد (١)
حزن مستعمل الكلام اختياراً　　وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب ، فأدرك　　ن به غاية المراد البعيد

وقال فى أخرى :

وإذا دجت أقلامه ، ثمّ انتحت　　برقت مصابيح الدّجى فى كتبه (٢)
باللفظ يقرب فهمه فى بعده　　منا ، ويبعد نيله فى قربه

(١) جرول : هو الحطيئة ، شاعر مخضرم توفى نحو سنة ٣٠ هـ . ولبيد : شاعر فارس مخضرم . توفى سنة ٤١ هـ .

(٢) دجت أقلامه ، أى بالمداد ، ودجت : أظلمت . وانتحت : جدت .

وقال فى ثالثة :

كلفتمونا حدود منطقكم ... فى الشعر يلغى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ... ـطق : ما نوعه ، وما سببه[١]
والشعر لمحٌ ، تكفى إشـارته ... وليس بالهذر ، طولت خطبه[٢]
لو أن ذاك الشريف وازن بيـ ... ـن اللفظ واختار لم يقل : شجبه[٣]
واللفظ حلى المعنى ، وليس يريـ ... ـك الصُّفر حسناً يريكه ذهبه[٤]

رأى بعض الباحثين[٥] أن البيت الأول فى القطعة الأولى يدلّ على أن البحترى يشهد بفضل الشعر على النثر ، ويرى له عليه فضل السبق ، وأنه يزين المعانى ويحليها ، ونرى أن فى ذلك تحميلاً للبيت فوق ما يطيق ، وأن الشاعر لم يقصد إلى ذلك عندما أنشأ قصيدته . فالشاعر يرمى فى قصيدته إلى أن يفضل بلاغة صاحبه على بلاغة الكتاب والشعراء ، أما أنه رفعه على الكتاب فقد قال له :

لتفننت فى الكتابة حتى ... نسى الناس فنّ عبد الحميد

يريد بذلك أنه تفنن فى كتابته ، وارتفع بمستواها ارتفاعاً فاق به عبد الحميد الكاتب ، وبقى أن يرفعه على بلاغة الشعراء ، فقال : إن المعانى التى ضمنها كتابته لو أنها وضعت فى ميزان شعرى لسادت شعر الحطيئة وجرير . ومن غير المعقول أن يريد البحترىّ التلميح فى قصيدته إلى تفضيل الشعر على النثر ، وهو يطرى بلاغة وزير كاتب .

تدلنا هذه الأبيات على أن البحترىّ يرى الشعر الرّائع هو هذا الذى يستعمل الأسلوب الواضح الذى لا تعقيد فيه ، والذى يتخذ أداته الألفاظ القريبة المألوفة

---

(١) ذو القروح : امرؤ القيس .

(٢) الهذر : الخلط ، والتكلم بما لا ينبغى .

(٣) يريد بالشريف : عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الذى جرت بينه وبينه البحترىّ مناقشة بالشعر تجدها فى الديوان . والشجب : الهلاك .

(٤) الصفر : النحاس الأصفر .

(٥) هو ابن رشيق القيروانى فى العمدة ١ : ١٦٤ .

لدى البلغاء ، يعبر بها عن أغراضه ، على ألا تكون هذه الألفاظ مبتذلة ، بل تكون مع قربها إلينا بعيدة منا .

كما أنه لا يرى استعمال اللفظ الثقيل على اللسان ما دام اللفظ الخفيف يغني عنه ، لأن اللفظ جمال لمعناه ، والجميل بطبيعته ليس كالمموّه الكاذب الجمال ، وواجب الشاعر أن يوازن بين الكلمات ليختار أجملها وأسهلها على اللسان .

هذا التعقيد الذى كرهه البحترى جعله ينأى عن أن يملأ شعره بهذه المحسنات البديعية التى أغرم بها أستاذه أبو تمام ، لما يجرّه الإغراق فى استعمالها من تعقيد يجعل الشعر مظلماً ، لا يشعّ منه نور المعنى ، ولا يقرب فيه ، على يسر ، إدراكُ الهدف .

أما معانى الشعر ، ومقاييسه ، فلا يشترط فيها أن تجرى على حدود المنطق ، وأن نأخذ فيها بالقول المحقق الذى يقوم عليه من العقل برهان قاطع ، بل إنّ الشعر يكفى فيه التخييل ، وأن تذهب النفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل ، فمثلا يجد الشعر من الجميل قول البحترى فى وصف الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما(١)

بينما لا يثبت هذا المعنى أمام مقاييس المنطق العقلية .

كما أن البحترىّ لا يجد من الضرورى فى الشعر أن يتضمن مقاييس وقضايا كمقاييس المنطق ، وقضاياه . ولا يريد الشاعر أن الكذب وتغيير الحقائق مما يصلح فى الشعر ، ويكون مقبولا فيه ، فإن مثل هذا الشعر لا يكذبه الناس بالحجج المنطقية ، ولكن يكذبونه بالرجوع إلى حقائق الحياة ، وهكذا يكون الكذب المقبول فى الشعر هو هذا الخيال الذى يعين على تصوّر الحقيقة . وعلى هذا جرى البحترىّ فى شعره : فهو ذو أسلوب واضح لا ظلمة فيه ولا تعقيد ، قد اختار الألفاظ المستعملة ، وتجنب الحوشية الثقيلة ، واستعمل ألوان البديع ، لكنه فى استعمال هذه الحلية ، حتى لا تجرّ الغموض على معانيه ، كما اتخذ

---

(١) يختال : يتبختر .

الخيال ومسيلة يكمل بها معانيه ، فتتضح فى ذهن السامع كاملة .

كذلك أحب البحترىّ الإيجاز فى شعره ، فقصائده موجزة فى أغلبها غير مطيلة ، لأنه يرى الإطالة سمة للخطابة لا للشعر .

هذا رأيه فى الشعر ، قد سار عليه فيما قرضه . وإذا كان استحسان المرء لشىء يدل على وجهة نظره ومذهبه ، فلنا أن نستنبط من إعجاب البحترىّ بهذا الشعر فيما روى ابن خلكان(١) ، وهو :

حمام الأراك ألا فاخبرينا لمن تندبين ؟ ومن تُعولينا؟(٢)
فقد شقيت بالنوح منا القلوب وأدميت بالندْب منا العيونا(٣)
تعالَىْ نُقم مأتماً للهموم ونعول إخواننا الظاعنينا(٤)
ونسعدكن ، وتسعدننا فإنّ الحزين يواسى الحزينا(٥)

لنا أن نستنبط أن البحترى يرى الشعر الرّائع ذلك الذى يستطيع تصوير العاطفة أقوى تصوير وأصدقه ، لأنّ هذه الأبيات تعبر عما كان يحسّ به البحترى من آلام الغربة عن وطنه ، عندما كان يبتعد عنه ، وما أكثر ما ابتعد عنه!

٣ ــ فنون شعره

كانت ظروف الحياة فى أيام البحترىّ تدفع الشعراء إلى انتهاج سبيل معينة فى شعرهم ، تلك هى أن يقصدوا به كبار رجال الدولة من خلفاء ، ووزراء ، وقوّاد ، وكتاب ، وغيرهم ، يمدحونهم بالشعر ، لينالوا جوائزهم ، ويعيشوا على هذه الجوائز ، وقد اتخذ هؤلاء الكبار من الشعراء وسائل للدّعاية لهم ، ونشر سمعة طيبة فى شعوبهم ، فكان كثير مما أنشئ من الشعر يومئذ فى المدح والثناء .

ولكنّ الشعراء نفّسوا عن عواطفهم ، وهم ينشئون قصيدة المدح ، فبثوا

(١) وفيات الأعيان ٢ : ١٧٧ .
(٢) الأراك : شجر . وأعول : رفع صوته بالبكاء والصياح .
(٣) شاقه : هاجه . وأدمى : أخرج الدم .
(٤) الظاعن : الراحل . (٥) أسعده : عاونه .

فيها هنا وهناك كثيراً من غير المدح : جعلوا مفتتحها الغزل ، فحدّثونا عن هذه العاطفة الخالدة ، وأدخلوا فى ثناياها الحكمة ، تحمل تجارب الناس وتجاربهم الخاصة ، ومزجوها بوصف الطبيعة ، وما شادته يد الإنسان ، وسجلوا فيها حوادث التاريخ ، وآراء الكبار فى هذه الحوادث ، فأصبحت قصيدة المدح تضمّ أغراضاً سواه .

ولقد جرى البحترىّ على النسق الذى جرى عليه أسلافه من قبل : فمدح ، وهجا ، وعاتب ، واستعطف ، وتغزل ، وافتخر ، ووصف ، ورثى ، واعتذر ، ونثر الحكمة . وهذه كلمة عن كل غرض من فنونه الشعرية :

ا — المدح :

شغل المدح أكثر شعر البحترىّ ، وقد يبدو ذلك مقللا من قيمة هذا الشعر ، ولكنّ هذا التراث من شعر المدح نفيد منه فائدة كبرى إذا نظرنا إليه لا على أنه مرتبط بشخص خاص ، ولكن على أنه تصوير للفضائل الإنسانية التى ينبغى أن يتصف بها الخليفة والوزير مثلاً ، ورسم للمثل الأعلى الذى ينبغى أن يكون عليه الحاكم أو الكاتب . أوَليس هذا الشعر الذى يلقى على مسامع الممدوحين جديراً أن ينبههم إلى رسالتهم فى الحياة ، وما ينبغى أن يكونوا عليه ، وخليقاً أن يقودهم ، ويقود الأجيال من بعدهم إلى خير سبل الحكم وسياسة الرعية .

وعلى هذا الأساس نعرض شعر البحترىّ فى المدح ، وقد خلعه على طوائف مختلفة ، فيها الخليفة ، وفيها مستشاره ، وفيها الوزير ، وفيها الكاتب ، وفيها النديم ، وفيها القائد ، وفيها غير أولئك من كبار الرجال فى أيامه .

والبحترى يعدّ من صفات الحاكم المثالية دماثة الخلق ، وطلاقة الوجه ، والكرم فى العطاء ، ويذكر من بين ما يحببه إلى رعيته دفاعه عن أطراف وطنها ، ومحاماته عنها ، وعطفه عليها ، ورقته فى معاملته أبناء شعبه ، ومساهمته بماله فى كل ما يعود عليها بالخير ، وحراسته لحمى دينهم بسيفه الصارم إن ألمت بالدّين نائبة ، وعنايته بأمر ثغورها ، لأنها موطن تسرّب العدو ، حتى لا يستطيع أن ينال منها منالا .

وهو الذى يحوط حمى الدين ، ويكفّ الظالم عن الاسترسال فى ظلمه ،

وينال به المظلوم حقه ، ولا يقف فى طريقه ظالم يهضمه ، ويقيم الجهاد ، ويقود شعبه إليه ، ويؤدى فروض الدين ، لأن الدّنيا لا تكون جميلة إلا إذا كان معها عمل صالح يبقى نعيمه فى الآخرة . وهكذا نستطيع أن ننظر إلى المدح نظرتنا إلى شعر يصوّر بعض نواحى المثل العليا للصفات الإنسانية .

ب — الفخر :

البحترىّ فخور بنفسه وشعره ، وكثير من قصائده فى المدح لا يخلو من الإدلال بهما ، وفى ديوانه فضلا عن ذلك قصائد أنشأها للفخر قصداً ، ولعلّ أظهر هذه القصائد اثنتان ، مطلع الأولى :

إنما الغىّ أن تكون رشيــدا   فانقصا من ملامة، أو فزيدا[1]

ومطلع الثانية :

أحبب إلىّ بطيف معدى الآتى   وطروقه فى أعجب الأوقات

والقصيدة الأولى أنشأها فى سنّ الشبيبة ، حين لم يكن قد أقام لنفسه مجداً يعتمد عليه فى الفخر ، ولذا بنى فخره على مجد قبيلته : طيئ ، وتكاد القصيدة كلها تقف عند تمجيد طيئ ومدحها ، ودار هذا التمجيد حول أربع صفات ، هى : البأس ، وما يتبع البأس من شجاعة ونجدة ، والكرم ، وكثْرة العديد ، ورجاحة الأحلام ، وهى عينها الصفات التى كان العربى الصريح يتمجد بها منذ أقدم العصور . ومن فخره فى هذه القصيدة :

سائل الدّهر مذ عرفناه ، هل يعـ   ـرف منا إلاّ الفعال الحميــدا
لم نزل قطّ مذ ترعرع نكسو   ه ندًى ليناً ، وبأساً شديدا
فهو من مجدنا يروح ويغــدو   فى علاً لا تبيــد حتى يبيدا

وكانت قصيدته كلها جارية على هذا النسق القوىّ .

أما القصيدة الثانية فقد أنشأها فى سنّ الأربعين ، بعد أن ظفر بأقصى ما يرجوه شاعر فى ذلك العصر ، وهو أن يتصل بالخليفة ، ويصبح من خاصته ،

---

(١) الغى : الضلال .

مُشفَّعاً مسموع الكلمة ، ولذلك اتجه فيها إلى الفخر بنفسه ، مباهياً بما ظفر به من مكانة ، وما ناله من مجد .

أما فخره بشعره فكثير فى قصائده ، وحسبنا هنا هذا البيت ، إذ يقول :

وأنا الذى أوضحت غير مدافع ... نهج القوافى ، وهى رسم دارس [١]

حـ ــ العتاب والاعتذار :

كان للبحترىّ منافسون وحساد ، وذلك أمر طبيعىّ لشاعر نال السعادة بشعره ، فكانوا يدسون له ، فتحدث بينه وبين من يتصل بهم قطيعة ، يلجأ إلى الشعر ليزيلها ، وقد يعاتب عندما يشعر بأنّ شيئاً مسّ كرامته .

وقد شهر البحترىّ فى الأدب العربىّ بحلاوة العتاب ، ويعدونه سيداً فى هذه الصناعة ، وأستاذاً للشعراء[٢] ، ولم يضعه النقدة فى تلك المكانة إلاّ لما رأوه فى عتابه من رقة ولين ، يجعلان عتابه مقبولاً لدى النفس ، ويستل ما قد يكون فيها من انحراف عليه .

واستمع إلى رقته ، وهو يعاتب المتوكل :

هل يجلبنَّ إلىّ عطفك موقفٌ ... ثبت لديك ، أقول فيه وتسمع [٣]

ما زال لى من حسن رأيك موئل ... آوى إليه من الخطوب ومفزع [٤]

فعلام أنكرت الصّديق ، وأقبلت ... نحوى ركاب الكاشحين تطلع [٥]

وأقام يطمع فى تهضُّم جانبى ... من لم يكن من قبل فيه يطمع [٦]

إلا يكن ذنب فعدلك واسع ... أو كان لى ذنب فعفوك أوسع

والبيت الأخير يرى أن عودة الصلة ضرورية ، سواء أكان هناك ذنب ، أم لم يكن . كما أن الشاعر عندما يقول للخليفة : فعلام أنكرت الصديق ،

---

(١) النهج : الطريق الواضح . والرسم : آثار الديار . والدارس : الممحو .

(٢) العمدة ٢ : ١٠٩

(٣) موقف ثبت : موقف يدلى فيه بالحجة والبرهان .

(٤) الموئل : الملجأ ، كالمفزع .

(٥) الكاشح : العدو المضمر العداوة .

(٦) تهضمه : ظلمه .

يعرف قدر نفسه أمام الخليفة ، ويراه صديقاً له . والحقّ أن البحترى لم ينس فى عتابه عزّة نفسه ، حتى قال مرّة وهو يعاتب الفتح بن خاقان :

سأحمل نفسى عنك حمل مُجامل   وأكرمها ، إذ كانت النفس تكرم[١]
وأبعدُ حتى تعرُض الأرض دوننا   ويمسى التلاقى ، وهو غيب مُرَجَّم[٢]

د ـ الرّثاء :

رثى البحترىّ جماعة من كبار رجال الدولة ، فيهم خليفة ووزير ، كما رثى قومه وغلامه . وهو حين يرثى قد يذرف الدّمع على الميت ، ويذكر فجيعته فيه ، وقد يسجل له ما امتاز به من خلال إنسانية رفيعة ، وقد يجمع فى رثائه بين البكاء والتسجيل .

والبحترىّ مجيد عندما يصوّر عواطفه الحزينة ، ومن أقوى قصائد رثائه ما أنشأه باكياً مقتل المتوكل ، وقد شغله فيها البكاء ، والألم من الغدر ، وخيانة الجند ، وتواطئهم مع ولىّ العهد ، شغله كل ذلك عن تسجيل صفات الخليفة ومآثره[٣] .

وكان البحترىّ يبلغ فى بعض قصائد رثائه درجة أرفع مما بلغها فى قصائد مدحه لهؤلاء الذّين رثاهم ، وقد سئل البحترىّ فى ذلك ، فأجاب بأنّ من تمام الوفاء أن تفضل المراثى المدائح[٤] .

وأجاد الشاعر كذلك فى التعزية التى يمزجها بالحكمة ، ليخفف وقع المصاب على النفس .

والرثاء عند البحترىّ قليل ، فهل كان لنفسه المرحة المتفائلة أثر فى هذه القلة ، أو أنه كان مقلاً من الأصدقاء الذين أخلص لهم وأخلصوا له ، ولم يكن الشاعر يندفع إلى الرثاء إلا إذا حرّكته عاطفة قوية تحمله على القول .

---

(١) جامله : أحسن معاملته وعشرته .   (٢) رجم : تكلم بالظن .
(٣) اطلب هذه القصيدة فى قسم المنتخبات فى هذا الكتاب .
(٤) الأغانى ١٨ : ١٧٠ .

هـ ـ الهجاء :

للبحترىّ كثير من القطع فى الهجاء ، تقرؤها جميعها ، فتخرج منها بنتيجة واحدة ، تلك هى أنّ البحترىّ شاعر غير مطبوع على الهجاء ، وأن الهجاء فن لم يجده البحترىّ ، ولم يتقن أسبابه . وإنك تلمس فى هذا الهجاء ظاهرتين قويتين : إحداهما قصر نفسه فيه ، فجلّ أهاجيه مقطوعات صغيرة ، لا تزيد غالباً على خمسة أبيات أو ستة ، ولا تتجاوز فى أكثر الأحيان البيتين والثلاثة ، وليس قصر النفس وحده كافياً للدلالة على ضعف شاعرنا فى فن الهجاء ، بل يضاف إليه قلة المعانى التى يحويها ، فليس قصر هجائه لأنه شفى نفسه ، وذكر ما أحاط بعنق المهجوّ ، بل لأنه عاجز عن الاستمرار فى الهجاء ، حتى يشفى غيظ نفسه . وثانيتهما : صراحة هجائه ، فهو يدعو من يهجوه حماراً تارة ، وكلباً أخرى ، وثوراً حيناً ، وابن كلب حيناً آخر ، والهجاء القوىّ يسمو عن تلك المعانى إلى حيث التهكم والسخرية . ومما استطاع أن يرتفع فيه أحياناً ، قوله يهجو من يُدعى أبا الحسن المدارىّ :

أبلغ أبا حسن ، وكنت أعدّه   من بينهم قمناً من الإحسان[1]
إن كنت إنساناً فقل لى صادقاً   ما الفرق بين القرد والإنسان ؟ !

وقوله يهجو الخثعمى :

ما إن يزال يجرّ من أشعاره   جيفاً ، فكيف أقول فى الجياف

ولقد حدثنا البحترىّ كثيراً عن بغضه فى مهاجاة الشعراء الهاجين له ، والناقمين عليه ، حذراً من أن يتمادوا فى هجائه ، فيخلد لأسرته عاراً يبقى ولا يزول ، وقد اعترف بذلك صراحة إذ يقول :

وأجبن عن تعريض عرضى لجاهل   وإن كنت فى الإقدام أطعن فى الصّفّ
وإنى لئيم إن تركت لأسرتى   أوابد تبقى فى القراطيس والصحف[2]

---

(١) القمن : الخليق والجدير .

(٢) الأوابد : جمع آبدة ، وهى : الداهية الخالدة الذكر .

كما كره البحترىّ أن يشهر بالهجاء ، وأن يجعله صناعة له ، ولعله وجد فى عصره أن هؤلاء الذين شهروا بالهجاء، كدعبل الخزاعى وابن الرومىّ، عاشوا بعيدين عن نيل السعادة والحظّ . أما هو فقد ظفر فى شعره بالسعادة والمال، فما له يعرض نفسه لحياة تملؤها الرغبة فى إيجاع الناس بالهجاء :

ولست منبرياً بالجهل أجعـــله صناعة ، ما وجدت الحلم يكفينى

هذا ، وقد كان ما أنشأه فى الهجاء منبعثاً عن أسباب شخصية ، كحرمان من جائزة ، أو تعجرف حاجب وسوء معاملته، أو تعرّض بعض الناس لشعره، حيناً بالنقد وحيناً بالسرقة، أو عدم شكران صنيعة أداها إلى صاحب، وقد يثور لحادث خالف الخلق الطيب .

و ـــ الحكمة والوصف :

لم يشتهر البحترىّ بالحكمة ، ومع ذلك لم يخل شعره منها، وهو يقتبسها مما أمامه فى الحياة وأحداثها، أو من مغانى ما سمعه أو رواه وحفظه، أو من الحادثة التى يقول فيها شعره ، وتجد هذه الحكم منثورة فى شعره .

أما الوصف فقد اعترف مؤرخو البحترىّ له بمقدرته عليه ، وقالوا : إنه أجود أنواع شعره[١] ، ومؤرخوه على حقّ حين عرفوا له مكانته فى هذا الفن ؛ فهو قدير على تصوير ما يرى ، تصويراً ينقل إليك الصورة كاملة ، لتتأثر بها كما تأثر، ثم لا يقف عند حدود هذا التصوير ، بل يصف لك إحساسه وشعوره إزاء ما يصف، فهو يشرك عينه وقلبه فى رسم ما يريده . وخذ لذلك مثلا وصفه لإيوان كسرى ، وما فيه من صورة أنطاكية ، فهو لا يكاد يذكر شيئاً تراه العين ، حتى يصف إحساسه إزاء ما يراه ، فعندما وصف صورة أنطاكية ، وفيها أنوشروان يحث جنده على الإقدام ، وقد أظله علم كبير ، ولبس ثوباً أخضر ، واعتلى صهوة جواد أصفر، وأخذ الروم والفرس يقتتلون بين يديه لا تكاد تسمع لهم صوتاً ـــ حدثك عن شعوره؛ فهو يحس كأن المنايا ترفرف

(١) معجم الأدباء ١٩ : ٢٤٩ .

فوق هذا الجمع الحاشد، وأن ما يراه ليس صورة لجند ، ولكنهم أجناد حقيقة يقتتلون حقًّا ، ثم يقول :

يغتلى فيهم ارتيابى حتى تتقرّاهمُ يداى بلمس[١]

وإذا وقف لدى الإيوان شعر به كأنما هو حزين، أزعج بفراق حبيب، أو أرهق بتطليق عرس ، وأحس به كأنما يكافح الأيام ، والدهر يلقى عليه بكلكله :

فهو يبدى تجلداً ، وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسى[٢]

ثم يعبر عن منتهى إعجابه بهذا الإيوان ، فيقول :

ليس يُدْرى أصنع إنس لجنّ سكنوه ، أم صنع جن لإنس

ولا تكاد تخطو خطوة فى هذه القصيدة الرائعة إلاّ رأيت صورة للعين وإحساسات للنفس . وقل مثل ذلك فى قصيدته التى وصف بها بركة أنشأها المتوكل فى إحدى قصوره ، وتأمل هذه الصورة البارعة للبركة فى الليل ، إذ يقول :

إذا السماء تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وقد كان للحضارة فى العصر العباسىّ أثرها فى شعر البحترىّ ؛ فوصف القصور التى أغرم بإنشائها بعض الخلفاء، وما ضمته من ألوان الترف والنعيم . كما كان للطبيعة نصيبها فى شعره ، فله قطعة قوّية فى وصف الرّبيع الذى أحسّ به كأنما يقبل مختالاً ضاحكاً ، حتى كاد يتكلم، لما فيه من الحسن والجمال :

ورقّ نسيم الرّيح ، حتى حسبته يجىء بأنفاس الأحبة نعما

وأكثر البحترىّ من وصف الخيل ، ووصف سُرَى الليل، ويظهر أنّ لأسفاره أثراً كبيراً فى ذلك ، وقد استعاض عن الناقة بالخيل يركبها ، يقطع عليها المدن والقرى والقفار . وقد كانت رحلة من هذه الرحلات باعثاً له على إنشاء قصيدته التى وصف فيها الذئب ، وقد أجاد فى وصفه ، ووصف المعركة

---

(١) تقرى : تتبع . (٢) الكلكل : الصدر .

التي دارت بينهما ، وانتهت بانتصار البحتريّ ، وهو يصوّر نفسيته ونفسية الذئب في قوله :

كلانا بها ذئب يحدّث نفسه ... بصاحبه ، والجدّ يتعسه الجدّ

وللبحتريّ قصيدة وصف فيها مبارزة الفتح بن خاقان للأسد ، وقد وصف الشاعر إعجابه ببطولة المتبارزين ، حين قال :

هزبر مشى يبغي هزبراً ، وأغلبٌ ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا[1]

ز — الغزل :

عرف البحتريّ الحبّ عند ما رأى «علوة» في مدينة حلب ، ووقف جزءاً كبيراً من شعره يتغزل بغادته ، حتى بعد أن فارقها إلى العراق .

وقد صوّر الشاعر في غزله كثيراً من عواطف الحب ، ومواقفه :

صوّر جمال المرأة ، فقال :

بأبي شادن تعلق قلبي ... بجفون فواتر اللحظ مرضى[2]
لست أنساه بادياً من قريب ... يتثنّى تثنّي الغصن غضا

ووصف مواقف اللقاء والوداع ، إذ قال :

باتت تبرّد من جواى وغلتي ... أنفاس ظبي طيب الأنفاس[3]
يدنو إلىّ براحه وبريقه ... فيعلّني بالرّيق بعد الكاس[4]
هيف الجوانح منه هاض جوانحي ... ونعاس مقلته أطار نعاسي[5]

هذا إلى عواطف كثيرة أخرى حدثنا عنها في شعره ، فوصف لنا كيف يُعشق الحبيب مع هجره ودلاله ، بل كيف يتفانى المرء في حبيبه ، وكيف أن الحبيب في نظر من يحبه أجمل مخلوق يراه ، وكيف يتذلل المحب لحبيبه ،

---

(١) الهزبر : الأسد . والأغلب : القاهر المعتز . وللمتنبي قصيدة يصف فيها لقاء بدر بن عمار للأسد . وقد وازن ابن الأثير بين قصيدتي البحتري والمتنبي في كتابه : المثل السائر ص ٢١٨ .

(٢) الشادن : ولد الظبية .

(٣) الجوى : شدة الوجد من العشق . والغلة : شدة العطش .

(٤) الراح : الخمر . وأعله : سقاه سقياً بعد سق ، أي جرعة بعد أخرى .

(٥) الهيف : ضمور البطن ورقة الخاصرتين . وهاضه : كسره وفتته .

ويستعطفه ، وإن كان هو الجانى المذنب ،وكيف يصبر المحبّ على ما يلاقيه من عذل ولوم ، لأن المحب يلذه ما يلاقيه فى الحبّ من عذاب ، إلى غير ذلك من عواطف وإحساسات يطول وجه استقصائها ، وكثير من هذه المعانى سبقه بها غيره من الشعراء ، كما قلد شعراء العرب الأولين ؛ فبكى الدّيار ، وسأل لها السقيا ، وسألها ، ولم تجبه ، ووقف عندها ، وذكر عهدها وأيامها ، إلى غير ذلك مما أكثر منه شعراء الجاهلية ، ولكن البحترىّ يدخل عليها من حسن نظمه ما يجعل هذه المعانى المكرورة ، عذبة محبوبة .

وأكثر البحترىّ من ذكر طيف الحبيب ، وشهر به شهرة فائقة[١]، حتى ضرب به المثل بين الأدباء ، فأصبحوا يقولون : أرقّ من طيف البحترىّ ، وربما كان السبب فى إكثار الشاعر من ذكر الطيف حبه لعلوة ، ثم بعده عنها ، ومن ذلك قوله :

تدرين كم من زورة مشكورة ... من زائر وهب الخطير ، وما درى
غاب الوشاة ، فبات يسهل مطلب ... لو يشهدون طريقه لتوعرا
كان الكرى حظ العيون ، ولم أخل ... أن القلوب لهنّ حظ فى الكرى

ويقول بعض الباحثين[٢]: إنه بنى أكثر أوصافه للخيال على قول قيس بن الخطيم[٣] :

إنى سربت ؟ وكنت غير سروب ... وتقرّب الأحلامُ غير قريب[٤]
ما تمنعى يقظى فقد تؤتينه ... فى النوم غير مصرّد محسوب[٥]

والحق أن البحترىّ كرّر كثيراً معانى قيس ، وإن لم يقف عندها ، بل ولّد ، وأتى بكثير من المعانى غيرها ، مما جعل البحترىّ مصدراً يقتبس منه الشعراء بعده .

---

(١) العمدة ٢ : ٩٥ . (٢) الموازنة ص ١٦١ .
(٣) شاعر الأوس وأحد صناديدها فى الجاهلية توفى سنة ٢ هـ .
(٤) سرب : توجه للرعى . يريد توجهت لزيارتى .
(٥) صرد العطاء : قلله ، وصرد الرجل : سقاه دون الرى . والناقدون يأخذون على هذا البيت أن الشاعر يريد : ما تمنعينه فى يقظتى فقد تؤتينه فى حال نومى . فى حين أن البيت يقول : ما تمنعينه وأنت متيقظة فقد تؤتيته وأنت نائمة ، وليس ذلك بمراد . راجع الموازنة ص ١٦٢ .

٤ ـ تأثره وتأثيره

اتصل البحترىّ بكبار شعراء عصره : أبى تمام ، ودعبل الخزاعى ، وابن الرومىّ ، وعلىّ بن الجهم ، وابن المعتزّ ، وابن الزيات ، وابن طاهر ، وكان أبو تمام أعظم هؤلاء الشعراء تأثيراً فى البحترىّ وشعره ، وكان أوّل ما قاله له : « يا أبا عبادة ، تخير الأوقات ، وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم أنّ العادة فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه فى وقت السحر ، وذلك أنّ النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ؛ فإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد ، فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف مقامه . وتقاض المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بهذه الألفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام ، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلاّ وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذّريعة إلى حسن نظمه ، فإنّ الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله تعالى » (١) .

وجرى شعر البحترىّ فى لفظه ومعناه ، وفى غزله ومدحه ، مقتفياً أثر هذا الدرس ، كما تأثره فى درس آخر ، إذ يقول : أنشدنى أبو تمام لنفسه :

وسابح هطل التعداء ، هتـــان ‏ ‏ على الجراء أمين غير خوّان (٢)
أظمى الفصوص ، ولم تظمأ قوائمــــه ‏ ‏ فخلّ عينيك فى ظمآن ريان (٣)

---

(١) زهر الآداب ١ : ١٠١ .

(٢) السابح من الخيل : السريع . وهطل التعداء : متتابع الجرى ، كالهتان . والجراء : الجرى .

(٣) أظمى : أسمر . والفصوص : جمع فص ، وهو حلقة العين .

فلو تراه مشيحاً والحصى زيم بين السنابك من مثنى ووُحدان[١]
أيقنت إن لم تَثَبَّتْ ــ أن حافره من صخر تدمُرَ أو من وجه عثمان[٢]

ثمّ قال لى : ما هذا الشعر ؟ قلت : لا أدرى . قال : هذا الاستطراد . قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : يرى أنه يريد وصف الفرس ، وهو يريد هجاء عثمان ؛ فطبق البحترىّ ذلك الدّرس ، فقال فى قصيدته التى مدح فيها محمد بن على القمىّ : وصف الفرس ، فقال :

وأغرّ فى الزّمن البهيم ، محجل قد رُحتُ منه على أغرّ محجل[٣]

ومضى يصفه حتى قال :

ما إن يعاف قذى ، ولو أوردته يوماً خلائق حمدويه الأحول[٤]

وكان حمدويه الأحول عدوًّا لمحمد بن علىّ القمى[٥] .

وقد أخذ البحترىّ كثيراً من المعانى التى سبقه بها أبو تمام[٦] ، وقد أحصى بعض العلماء هذه المعانى التى أخذها البحترىّ ، وغالى فى ذلك ، حتى عدّ المعانى المشتركة الشائعة بين الناس ، مما أخذه البحترىّ إذا كان قد عبر عنها قبله أبو تمام .

فمما أخذه البحترىّ من أبى تمام قول البحترىّ :

وسألت من لا يستجيب ، وكنت فى استخباره كمجيب من لا يسأل

أخذه من قول أبى تمام :

فسواء إجابتى غير داع ودعائى بالقفر غير مجيب

وقال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

---

(١) أشاح فى أمره : جد . وزيم : قطع .

(٢) تدمر : مدينة قريبة من دمشق .

(٣) الأغر من الخيل : ما كان بجبهته غرة ، وهى البياض . والبهيم : الأسود . والمحجل : ما كان فى قوائمه بياض .

(٤) عاف : كره . والقذى : ما يقع فى الشراب من تبنة ونحوها .

(٥) أخبار أبى تمام ص ٧٨ . (٦) راجع الموازنة ص ١٣٧ وما يليها .

فقال البحترىّ :

ولن تستبين الدّهرَ موضعَ نعمــة إذا أنت لم تُدْلل عليها بحامد

وقال أبو تمام :

وما نفعُ من قد ماتَ بالأمس صادياً إذا ما السماءُ اليوم طال انهمارها[١]

فقال البحترىّ :

واعلم بأن الغيث ليس بنــافع للنــاس ما لم يأت فى إبانه[٢]

وغير ذلك كثير ، تجده فى كتاب الموازنة ، وكتاب أخبار أبى تمام .

ولم يشأ البحترىّ أن يجارى أبا تمام فى الاستكثار من ألوان البديع استكثاراً أفضى فى كثير من الأحيان إلى تعقيد المعنى وغموضه ، وهو ما عيب على أبى تمام ، فاكتفى البحترىّ من المحسنات بما يزين ولا يعقد .

ولم يأخذ عنه أيضاً إيراد المعانى الدقيقة التى تحتاج إلى غوص الفكر ، حتى يهتدى إليها ، وهو ما عرف به أبو تمام ، وآثر البحترىّ وضوح المعنى وضوحاً لا يكد ذهن قارئه .

ولم يقف البحترىّ فى أخذه المعانى عند أبى تمام ، بل كان إذا أعجبه المعنى عند سابقيه من الشعراء أعاد صياغته بأسلوبه ، وأدخله فى شعره . وقد تتبع النقاد ما أخذه البحترىّ من معانى غيره[٣] ، فمن ذلك قوله يصف الخمر :

يخفى الزجاجةَ لونها ، فكأنهــا فى الكأس قائمــة بغــير إناء

أخذه من قول علىّ بن جبلة[٤] :

كأنّ يد النــديم تدير منهــا شــعاعاً لا يحيط عليــه كأس

وقال البحترىّ :

أعطيتنى ، حتى حسبت جزيل ما أعطيتنيــه وديعــة لم توهب

أخذه من قول الفرزدق[٥] :

---

(١) الصادى : العطشان . (٢) إبان الشىء : حينه .

(٣) راجع الموازنة ص ١٣١ وما يليها . (٤) شاعر مجيد توفى سنة ٢١٣ هـ .

(٥) شاعر نبيل من أهل البصرة عظيم الأثر فى اللغة توفى سنة ١١٠ هـ .

أعطانى المال ، حتى قلت : يودعنى　　أو قلت : أعطيت مالا قد رآه لنا

وبيت البحترىّ أجود . وقال الحسين بن الضحاك[١] :

وتطمع أن يطيعك قلب سعدى　　وتزعم أنّ قلبك قد عصاك

أخذه البحترىّ ، فقال :

ولست أعجب من عصيان قلبك لى　　عمراً ، إذا كان قلبى فيك يعصينى

وقال عمرو بن معدى كرب الزبيدى [٢] :

والضاربين بكل أبيض مرهف　　والطاعنين مجامع الأضغان

فقال البحترىّ :

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى　　مشغوفة بمواطن الكتمان

قال الآمدى : « إلاّ أنّ قول عمرو : "والطاعنين مجامع الأضغان" فى غاية الجودة والإصابة ؛ لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضغانهم ، فإذا وقع الطعن موضع الضّغن فذلك غاية كل مطلوب »[٣] .

إلى غير ذلك مما ذكره صاحب الموازنة ، وهذا الأخذ طبيعىّ لشاعر مثقف ثقافة واسعة فى الأدب ، ومطلع اطلاعاً كبيراً على ميراث الشعراء السابقين والمعاصرين .

رأى البحترى أن منهجه هو منهج العرب الخاص ، فلم يتأثر أستاذه فى جعل الحكمة من بين أغراض شعره ، ولا أن يصبغ بعض شعره صبغة فلسفية ، كما لم يتأثر معاصرَيْه : عبيد الله بن عبد الله ، وابن الرومى ، فى إطالة قصائدهما ، ووجد ذلك هذراً لا يصلح للشعر إن صلح للخطابة .

وقد اقتدى بالبحترىّ كثير ممن جاء بعد فى سهولة الأساوب ، وتخير اللفظ ، ووضوح المعنى . ومن أظهر هؤلاء الذين تأثروه أبو فراس الحمدانى ، كما أخذ الشعراء بعض معانيه ، ومن هؤلاء أبو الطيب المتنبى[٤] ، فقد عدّ له صاحب

---

(١) شاعر نديم للخلفاء، أصله من خراسان توفى سنة ٢٥٠ هـ .

(٢) فارس يمنى ، له شعر جيد توفى سنة ٩ هـ .

(٣) الموازنة ص ١٣٤ .

(٤) من أشهر شعراء الأدب العربى توفى سنة ٣٥٤ هـ .

الوساطة[١] كثيراً من ذلك ، كقوله :

وكل امرئ يولى الجميل محبب　　وكل مكان ينبت العزّ طيّب

أخذه من قول البحترىّ :

وأحبّ آفاق البلاد إلى الفتى　　أرض ينال بها كريم المطلب

وقول أبى الطيب :

وما حاجة الأظعان حولك فى الدّجى　　إلى قمر ؟ ! ما واجد لك عادمه[٢]

أخذه من قول البحترىّ :

أضرّت بضوء البدر ، والبدر طالع　　وقامت مقام البدر لما تغيبا

٥ ــ منزلته

يتبوأ البحترىّ مكانة رفيعة بين شعراء العربية ، لأنّ مذهبه الشعرىّ ، والنهج الذى اتبعه فى نظم قريضه مذهب سديد ؛ فالشعر هو لسان العاطفة ، والمعبّر عن الوجدان ، ويستخدم الخيال فى تصوير ما يجيش بالنفس من إحساسات ، ولذلك قالوا : إنه من المطبوعين على مذهب الأوائل ، ولم يفارق عمود الشعراء المعروف[٣]لم.

وكان البحترىّ أستاذاً للشعراء فى تجنب التعقيد ، ومستكره الألفاظ ، ووحشى الكلام ، وغريب الاستعارات ، كما امتاز شعره بالاستواء ، وأنه قلما ينحطّ فى بعضه انحطاطاً قبيحاً .

وإذا كان أكبر شعر البحترىّ فى المدح فتلك سمة عصره ، والعصور قبله وبعده ، ولم يكن الأدب العربى يرى فى ذلك عيباً ، على أننا قد عرضنا فيما مضى رأياً فى المدح .

---

(١) ص ١٨١ وما يليها .

(٢) الأظعان : جمع ظعينة ، وهى الهودج ، والمرأة ما دامت فى الهودج .

(٣) الموازنة ص ٢ .

وقد دلّ البحترىّ على أنه قدير فى معالجته لغير المدح من أغراض الشعر ، ولو أنّ الظروف كانت قد أتاحت له أن يهب شعره للحديث عن عواطفه المختلفة فحسب ، لكان له فى الأدب العربىّ إنتاج ضخم خالد . وحسبك ما أنتجه فى الوصف والغزل دليلاً على ذلك .

ونال البحترىّ مكانة سامية بين شعراء عصره ، قالوا إنه « أسقط فى أيامه أكثر من خمسمائة شاعر ، وذهب بخيرهم ، وانفرد بأخذ جوائز الخلفاء والملوك دونهم »[١] . وقد يكون فى ذلك بعض المغالاة ، ولكنها تصوّر حقيقة منزلته فى أيامه . كما ارتفع صوت المغنين[٢] يطربون الناس بشعره منذ حياته .

وللبحترىّ منزلته كذلك فى تصوير كثير من الأحداث السياسية التى جرت فى عصره ، وما كان لها من صدى فى نفس الحزب الغالب فى تلك الأيام . وكما صوّر الأحداث صوّر بعض مظاهر الحضارة العباسية ، وصوّر بعض الاتجاهات الدينية والأدبية فى العصر الذى عاش فيه .

وإذا كان بعض النقاد[٣] قد أخذ عليه أخطاء فى المعنى وفى اللفظ ، فذلك ما لا يخلو منه شعر شاعر ، وهى فى جملتها قليلة ، لا تحط من شأن إنتاجه الضخم من الشعر .

---

(١) المرجع السابق ص ٥ .

(٢) الأغانى ١٨ : ١٦٧ .

(٣) الموازنة ص ١٦٠ وما يليها .

الفصل الرابع

منتخباتٌ من آثار البحترى

١ ــ الشّاعر السّياسىّ

الخليفة المتوكل

أجاد البحترى فى الشعر الذى مدح به الخليفة جعفراً المتوكل على الله ، ومن ذلك هذه القصيدة التى بدأها بالغزل ، ثم انتقل إلى المدح انتقالا مفاجئاً .

وقد أثنى الشاعر على الخليفة بالجود ، والسداد فى تدبير الملك ، وتوخى الإحسان فى القول والعمل ، والتزام طاعة الله ، والشجاعة فى ميدان القتال ، وقد اكتسبت القصيدة قوة من قافية الضاد :

أيها الراغبُ الذى طلبَ الجُو ... دَ ، فأَبلَى كُومَ المطايا ، وأَنْضَى[1]

رِدْ حِياضَ الإمامِ تَلْقَ نَوالاً ... يسعُ الرّاغبين طولا ، وعرضا[2]

فهناك العطاءُ جَزْلاً لمن رَا ... مَ جزيلَ العطاءِ ، والجودُ محضا[3]

هو أَنْدَى من الغمامِ ، وأَوْفَى ... وَقَعاتٍ من الحُسامِ ، وأَمضَى[4]

دبّر المُلكَ بالسَّدادِ ، فإبرا ... ماً صلاحُ الإسلام فيه ، ونقضا[5]

يتوخَّى الإحسانَ قولًا وفعلًا ... يُطيعُ الإلهَ بسْطًا وقَبْضا[6]

---

(١) الكوم : القطعة من الإبل . والمطايا : الدواب . وأنضى الدابة : هزلها .

(٢) النوال : العطاء .

(٣) الجزل : الواسع . والمحض : الخالص .

(٤) أندى : أكرم . والحسام : السيف .

(٥) السداد : الرشاد والصواب .

(٦) توخى الأمر : تعمده ، وتطلبه دون سواه . وبسطاً وقبضاً ، أى فيما يعطى وفيما يمنع .

وإذا مـا تشنَّعَتْ حوله الحر ... بُ ، وكان المَقامُ بالقَوْمِ دَحْضا[١]
غَشِي الدَّارِعِين ضَرْباً هَذَاذَيْـ ... ـك ، وطعناً يُودع الخيلَ وخْضا[٢]
يا بنَ عم النبي حقًّا ، ويا أَزْ ... كى قريشٍ:نفساً،وديناً،وعِرْضا[٣]
بنتَ بالفضلِ والعلوِّ ؛ فأَصبحـ ... ـتَ سماءً ، وأَصبح الناسُ أَرضا[٤]
وأَرى المجدَ بين عـارفةٍ منـ ... ـك تُرَجَّى ، وعَزمةٍ منك تُمْضى[٥]

إلى دمشق

عزم المتوكل على الرحيل إلى دمشق ، ولعله كان يريد اتخاذها عاصمة لخلافته ، فقد ضاق ذرعاً بجوار الترك ، وود لو يستطيع العيش بين العرب فى الشام : فأنشأ البحترى هذه القصيدة ، يثنى فيها على دمشق ، ويدعو للخليفة أن يصحبه التوفيق فيما أراد وقال بعد الغزل :

حبّذا العيشُ فى دِمَشـ ... ـقَ إذا ليلُهـا بَرَدْ
حيثُ يُستقبَلُ الزما ... نُ ، ويُستحسنُ البَلَدْ[٦]
سَفَرٌ جدَّدت لنا اللـ ... ـهوَ أَيامُه الجُـدُدْ
عــزَمَ اللهُ للخليـ ... ـفةِ فيه على الرَّشَدْ[٧]
ملك تَعجِزُ البَرِيَّـ ... ـةُ عن حلّ ما عقدْ[٨]

---

(١) تشنعت : جدت . والدحض : المكان الزلق .
(٢) الدارع : لابس الدرع . وهذاذيك : قطعاً بعد قطع . والوخض : الطعن غير النافذ .
(٣) زكا : طاب .
(٤) البين : البعد .
(٥) العارفة : العطية . وأمضى العزم : نفذه .
(٦) يستقبل الزمان : يريد يستأنف زمان جديد جميل .
(٧) عزم : أراد .
(٨) البرية : الخليقة .

يا إِمامَ الهدَى الذى احـ ـتاط للدِّين ، واجتهدْ
سِرْ بسعدِ السعودِ فى صُحبةِ الواحدِ الصَّمدْ(١)
وابقَ فى العزِّ والعُلـ ـوِّ لنا آخرَ الأَبدْ(٢)

عودة إلى العراق

قد يكون لولى العهد محمد المنتصر يد طولى فى عودة المتوكل إلى العراق ، فقد كان ضالعاً مع نفر من مريديه ، حتى يستبق ولاية العهد لنفسه ، والبحترى فى هذه القصيدة يهنئ المنتصر بعودة أبيه ، كما يصف زينة بغداد لاستقباله ، ومضيه إلى سامرا . قال بعد الغزل :

إِمامٌ يراهُ أَولَى عبادِه بحقٍّ ، وأَهداهُمْ لقصدِ سبيله
خليفتُه فى أَرضِه ، ووليُّهُ الـ رَّضىُّ لديْه ، وابنُ عمِّ رسوله(٣)
وبحرٌ يمُدُّ الرّاغبون عيونَهمْ إلى ظاهرِ المعروفِ فيهمْ جزيله(٤)
ترى الأَرضَ تُسقَى غَيْثَها بمروره عليها ، وتُكْسى نبتَها بنزوله(٥)
أَتى من بلاد الغرب فى عدد النَّقَا نَقَا الرملِ : من فرسانه ، وخيوله(٦)
فأَسفَرَ وجهُ الشرقِ ، حتى كأَنما تبلَّج فيه البدرُ بعد أُفوله(٧)
وقد لَبِستْ بغدادُ أَحسنَ زيِّها لإِقبالِه ، واستشرفَتْ لعدوله(٨)

---

(١) الصمد : المقصود .
(٢) الأبد : الدهر .
(٣) الرضى : المرضى .
(٤) الجزيل : الكثير .
(٥) الغيث : المطر .
(٦) النقا : القطعة من الرمل .
(٧) أسفر : ظهر . وتبلج : أشرق . والأفول : الغروب .
(٨) استشرف الشىء : رفع بصره لينظر إليه . وعدوله : انصرافه إليها .

ويَثْنيه عنها شوقُه ، ونِزَاعُه ... إلى عرضِ صَحْنِ الجَعْفَرىّ وطوله[١]

إلى منزلٍ فيه أَحبَّاؤه الأُلى ... لقاؤُهمُ أَقْصى مُنــاهُ وسولِهِ[٢]

محلٌّ يُطِيبُ العيشَ رقةُ ليْلِهِ ... وبُرْدُ ضُحاه ، واعتدالُ أَصيلِهِ[٣]

لَعَمرى ، لقد آبَ الخليفةُ جعفرٌ ... وفى كلِّ نفسٍ حاجةٌ من قُفولِهِ[٤]

دعاه الهوى فى «سُرَّ مَن راءَ» ؛ فانكفَى ... إليها انكفاءَ اللَّيْثِ تلقاءَ غيلِهِ[٥]

على أنها قد كان بُدِّل طِيبُها ... ورُحِّل عنهــا أُنْسُها برحيله

وإفراطُها فى القبح عند خروجِه ... كإفراطِها فى الحسنِ عند دخوله

ليَهْن ابنَهُ خيرَ البنينَ : محمدًا ... قُدُومُ أَبٍ عالى المحل جليلِهِ

غَدَا ، وهو فردٌ فى الفضائل كلها ... فهل مُخبرٌ عن مثلِه أَو عديلِهِ[٦]

وإنَّ وُلاةَ العهدِ فى الحلمِ والتُّقَى ... وفى الفضلِ من أَمثالِهِ وشكولِهِ[٧]

صُلْح بَنِى تغلب

ثارت حرب بين قبيلة من قبائل العرب فى الجزيرة ، هى قبيلة تغلب بن ربيعة ، فكاد يفنى بعضها بعضاً ، فعنى المتوكل بهذه الحرب ، وعهد إلى وزيره الفتح بن خاقان أن يصلح بين المتحاربين؛ فأعاد السلام بينهم ، فأنشأ البحترى قصيدة يشكر بها الخليفة على تلك اليد ، قال فيها :

أَسِيتُ لأَخوالى ربيعةَ إذ عَفَتْ ... مصايفُها منها ، وأَقْوَتْ رُبوعُها[٨]

---

(١) يثنيه عنها : يصرفه عنها . ونزع إلى الشيء : اشتاقه . والجعفرى : قصر بناه المتوكل فى سامرا .

(٢) سوله : مخفف سؤله .

(٣) الأصيل : الوقت بين العصر والمغرب . (٤) القفول : الرجوع .

(٥) انكفأ : انصرف . والليث : الأسد . والغيل : أجمة الأسد .

(٦) العديل : النظير . (٧) الشكول : جمع شكل ، وهو : النظير .

(٨) أسى : حزن . وعفا الأثر : امحى . والمصايف : : جمع مصيف . وأقوى : خلا . والربوع : جمع ربع ، وهو : الدار .

بِكُرْهِى أَن باتتْ خَلاءً ديارُها ... ووحشاً مَغانيها ، وشتَّى جُموعُها(١)
وأمستْ تَساقَى الموتَ من بعدِ ما غدتْ ... شَرُوباً تَساقى الراحَ رِفهاً شُروعُها(٢)
إذا افترقوا عن وقعةٍ جَمَعَتْهم ... لأُخرى دماءٌ ما يُطَلُّ نجيعُها(٣)
تَذُمُّ الفتاةُ الرَّوْدُ شِيمةَ بعلِها ... إذا باتَ دونَ الثأْر ، وهو ضجيعُها(٤)
حَميَّةُ شعبٍ جاهليٍّ وعزَّةٌ ... كُلَيْبيَّةٌ أعيا الرجالَ خضوعُها(٥)
وفُرسانُ هَيجاءٍ تجيشُ صدورُها ... بأَحقادِها حتى تضيقَ دروعُها(٦)
تُقَتِّلُ من وترٍ أَعزَّ نفوسِها ... عليها بأَيدٍ ما تكادُ تُطيعُها(٧)
إذا احترَبتْ يوماً ، ففاضتْ دماؤُها ... تذكرتِ القُرْبى ، ففاضتْ دموعُها(٨)
شَواجرُ أرماحٍ تُقطِّعُ بينهم ... شواجرَ أَرحامٍ ملومٍ قَطوعُها(٩)
فلولا أَميرُ المؤمنين وطَوْلُهُ ... لعادتْ جُيوبٌ ، والدماءُ رُدوعُها(١٠)
ولاصطُلِمَتْ جرثومةٌ تغلبيَّةٌ ... به استُبْقِيَتْ أَغصانُها ، وفروعُها(١١)

---

(١) الوحش : الخالى . والمغانى : جمع مغنى ، وهو المنزل .

(٢) تساقى : تتساقى : يسقى بعضها بعضاً . شروب : كثيرة الشرب . والراح : الخمر . والرفه : مصدر رفهت الإبل ، أى وردت الماء كل يوم متى شاءت . والشروع : ورود الماء .

(٣) طل دمه : هدر ، ولم يثأر له . والنجيع من الدم : ما كان مائلا إلى السواد .

(٤) الرود : اللينة .

(٥) الحمية : الأنفة . وكليبية : منسوبة إلى كليب وائل من ربيعة ، يضرب المثل بعزته . وأعيا : أعجز .

(٦) والهيجاء : الحرب . وجاشت القدر : غلت .

(٧) الوتر : الانتقام . (٨) احترب القوم : أوقدوا نار الحرب .

(٩) شواجر أرماح : أرماح مشتبكة متداخل بعضها فى بعض .

(١٠) الطول : الفضل والقدرة . والجيوب : جمع جيب ، وهو فتحة فى القميص يلبس منها . والردوع : من ردعه : لطخه . والمعنى : لولا فضل أمير المؤمنين لحدث تمزق فى القبيلة تلطخه الدماء .

(١١) اصطلم الشىء : استأصله . والجرثومة : الأصل .

رَفَعْتَ بضبْعَىْ تغلِبَ ابنةِ وائلٍ وقد يَئِسَتْ أَن يستقلَّ صريعُها(١)

وكنتَ أَمينَ اللهِ مولى حياتِها ومولاكَ فتحٌ يوم ذاك شفيعُها

لَعَمرى ، لقد شرَّفتَه بصنيعةٍ إِليهم ، ونُعْمَى ظلَّ فيهم يُشيعها(٢)

تألَّفَهم من بعد ما شرَّدتْ بهم حَفائظُ أَخلاقٍ بطىءٍ رجوعُها(٣)

فأَبصرَ غاديها المحجَّةَ ؛ فاهتدى وأَقصرَ غالِيها ، ودانَى شَسُوعُها(٤)

وأَمضَى قضاءً بينها ؛ فتحاجزَت ومخفوضُها راضٍ به ، ورفيعُها(٥)

فقد رُكِّزَتْ سُمرُ الرِّماحِ وأُغمِدَتْ رِقاقُ الظُّبَى : مجفُوُّها ، وصنيعُها(٦)

فقَرَّت قلوبٌ كان جَمًّا وجيبُها ونامتْ عيونٌ كان نَزْرًا هُجوعُها(٧)

أَتتكَ ، وقد ثابتْ إِليها حلومُها وباعدَها عمّا كَرِهتَ نزوعُها(٨)

تُعيدُ ، وتُبدِى من ثناءٍ كأَنه سبائبُ رَوْضِ الحَزْنِ جاد ربيعُها(٩)

---

(١) الضبع : العضد . ورفع بضبعيه : أنهضه . ويستقل : ينهض . والصريع : المطروح على الأرض .

(٢) الصنيعة : الإحسان . وأشاع الخير : أذاعه .

(٣) شرد : نفر . والحفيظة : الغضب والحمية فيما يحفظ .

(٤) الغاوى : الضال . والمحجة : جادة الطريق ووسطه . وأقصر : أمسك . والغالى : المتجاوز الحد . ودانى : قارب . والشسوع : البعيد .

(٥) أمضى : أنفذ . وتحاجزت : منع بعضها بعضاً .

(٦) ركزت : دفنت . ورقاق : جمع رقيقة . والظبى : جمع ظبة ، وهى : حد السيف ومجفوها : الغليظ منها . وصنيعها ، أى المصنوعة صنعاً جيداً .

(٧) قر : ثبت وسكن . وجما : كثيراً . ووجيب القلب : ارتجافه وخفقانه . والنزر : القليل . والهجوع : النوم .

(٨) ثاب إليه : رجع . والحلوم : العقول . ونزع عن كذا : كف ، وانتهى عنه ، يريد نزوعها عن الحرب .

(٩) السبائب : الشقق ، وهى : جمع شقة ، والشقة : ما شق من ثوب أو نحوه مستطيلا . والحزن : الأرض الغليظة . والروض فى الحزونة أحسن منه فى السهولة . وجاد : أمطر .

تَصُــدُّ حياءً أن تراك بأَعْين أَتى الذَّنبَ عاصيها فلِمَ مُطيعُها
ولا عُذرَ إلا أَنَّ حِلمَ حليمِها يُسفَّهُ فى شرٍّ جناه خليعُها[١]
بَقِيتَ ،فكم أَبقَيْتَ بالعفو محسناً على تَغْلبٍ ، حتى استمرَّ ظَليعها[٢]
ومُشفقةٍ تخشى حِماماً على ابنِها لأَوَّلِ هَيجاءٍ تلاقَى جُموعها[٣]
رَبَطتَ بصلحِ القومِ نافرَجأْشِها فقرَّحَشاها ، واطمأَنَّتْ ضلوعُها[٤]

موكب الخليفة

كان الخليفة العباسى يخرج فى موكب حافل لصلاة العيد ، وكان يخطب الناس فى ذلك اليوم والبحترى يصف هذا الموكب ، تتقدمه فرق الجيش . ويحتفل به الشعب ، ثم يصف الخليفة المتوكل . متواضعاً برغم هذه المظاهر ، محبوباً من الشعب ، وخطيباً بليغاً ، إذ يقول بعد مقدمة غزلية :

اللهُ مكَّنَ للخليفــةِ : جعفرٍ مُلكاً يُحَسِّنُه الخليفةُ : جعفرُ
نُعمَى من اللهِ اصطفاه بفضلِها والله يرزُقُ من يشاءُ ، ويقدُرُ[٥]
فاسلَم أَميرَ المؤمنين ، ولا تزلْ تُعطَى الزيادةَ فى البقاء ، وتُشكَرُ
بالبِرّ صُمتَ ،وأَنتَ أَفضلُ صائمٍ وبسنَّةِ الله الرَّضِيَّةِ تُفطِرُ
فانعَمْ بيومِ الفطر عيناً ؛ إِنه يومٌ أَغرُّ من الزَّمانِ مُشَهَّرُ[٦]
أَظهرتَ عِزَّ المُلكِ فيه بجَحْفَلٍ لَجِبٍ يُحاطُ الدينُ فيه ويُنْصرُ[٧]

(١) يسفه : ينسب إلى السفه . والخليع : المتهتك .
(٢) ظلع فى مشيه : غمز .
(٣) الحمام : الموت . وتلاقى : تتلاقى .
(٤) النافر : الشارد . والجأش : القلب .
(٥) قدر الرزق : قسمه .
(٦) أغر : أبيض ، من غر الشيء : أبيض . ومشهر : مظهر .
(٧) الجحفل : الجيش . واللجب : الشديد الجلبة .

خِلنا الجبالَ تسيرُ فيه، وقد غَدت ... عُدَدًا يسيرُ بها العديدُ الأكثرُ
فالخيلُ تَصهَلُ ، والفوارسُ تدَّعى ... والبِيضُ تلمعُ ، والأَسنَّةُ تَزْهَر(١)
والأَرضُ خاشعةٌ تميدُ بثِقْلِها ... والجوُّ مُعتكرُ الجوانبِ أَغبرُ(٢)
والشمسُ ماتعةٌ ، توقَّدُ بالضحا ... طَورًا ، ويطفئُها العجاجُ الأَكدرُ(٣)
حتى طلعتَ بضوءِ وجهك ؛ فانجلتْ ... تلك الدُّجى ،وانجابَ ذاك العِثْيَرُ(٤)
ورنا إليك الناظرون فإصبَعٌ ... يُومَا إليكَ بها ، وعينٌ تنظرُ(٥)
يجدون رؤيتَك التى فازوا بها ... من أَنْعُمِ اللهِ التى لا تُكفَرُ(٦)
ذكروا بطلعتك النبيَّ ؛ فهلَّلوا ... لما طلعتَ من الصفوفِ ، وكبّروا(٧)
حتى انتهيتَ إلى المصلَّى لابساً ... نورَ الهدَى يبدو عليك ، ويَظهَر
ومَشيتَ مِشيةَ خاشعٍ متواضعٍ ... لله لا يُزْهَى ، ولا يتكبَّرُ(٨)
فلو انَّ مُشتَاقاً تكلَّفَ فوقَ ما ... فى وُسْعِهِ لَسعَى إليك المِنبرُ
أُيِّدْتَ من فصلِ الخطابِ بحكمةٍ ... تُنبى عن الحقِّ المبينِ ، وتُخبِرُ(٩)
ووقَفتَ فى بُرْد النبيِّ مُذكِّرًا ... بالله ، تُنذِرُ تارة ، وتُبشِّر(١٠)

---

(١) ادعى الشيء : زعم أنه له، حقاً أو باطلا . والبيض : السيوف . والأسنة : جمع سنان، وهو : نصل الرمح . وتزهر : تتلألأ .

(٢) خشع : تطامن . ومعتكر : شديد السواد . وأغبر : له لون الغبار .

(٣) ماتعة : بلغ ضوءها غايته . والعجاج : الغبار . والأكدر : المائل إلى السواد .

(٤) الدجى : الظلمات . وانجاب : انكشف . والعثير : التراب .

(٥) رنا إليه : أدام النظر إليه بسكون طرف . وأومأ : أشار .

(٦) تكفر : تستر .

(٧) هللوا : رفعوا أصواتهم باسم الله .

(٨) زها : تكبر .

(٩) أيده : قواه . وفصل الخطاب : الخطاب الفاصل بين الحق والباطل .

(١٠) البرد : الثوب المخطط .

ومواعظٍ شَفَت الصدورَ من الذى يعتادُهــا ، وشفاؤُها متعذِّرُ
حتى لقد علمَ الجهولُ ، وأَخلصَتْ نفسُ المُرَوِّى ،واهتدى المُتَحَيِّرُ(١)
صَلَّوْا وراءَك آخِذين بعِصمةٍ من رَبِّهِمْ ، وبذمةٍ لا تُخفَرُ(٢)
فاسلَمْ بمغفرةِ الإِله ، فلم يزلْ يهَبُ الذنوبَ لمنْ يشاءُ ، ويغفِر
اللهُ أَعطاكَ المحبةَ فى الوَرَى وحَباك بالفضلِ الذى لا يُنكَرُ(٣)
ولأَنتَ أَملأُ للعيونِ لديهمُ وأَجلُّ قدرًا فى الصدورِ ، وأَكبرُ

ولاة العهد

تشبه المتوكل على الله بهارون الرشيد . فولى عهده أولاده الثلاثة : المنتصر ، والمعتز ، والمؤيد ؛ فأثنى البحترى على هذا التقليد . وقال :

أَحيــا الخليفةُ جعفرٌ بفَعالِهِ أَفعــالَ آباءٍ له وجــدودِ
تتكشَّفُ الأَيامُ من أَخــلاقِه عن هَدْىِ مهدىٍّ ، ورُشد رشيدِ(٤)
حاط الرعيَّةَ حين ناط أُمورَها بثلاثة بكروا وُلاةَ عهود(٥)
قُدَّامَهم نورُ النبىِّ ، وخلفَهم هدىُ الإمامِ القائمِ المحمودِ(٦)
لن يجهلَ السارِى المحجَّةَ بعد ما رُفعت لنا منهم بُدُورُ سُعود(٧)

---

(١) المروى : المطيل التفكير .
(٢) العصمة : كل ما منع به الشىء . وتخفر : ينقض عهدها .
(٣) حباه به : أعطاه إياه .
(٤) فى البيت إشارة إلى الخليفتين : المهدى ، والرشيد .
(٥) حاطه : حفظه وتعهده . وناطه : علقه .
(٦) الإمام القائم : يريد به المتوكل .
(٧) المحجة : جادة الطريق ووسطه .

كانوا أَحقَّ بعقدِ بَيعتِها ضُحاً ... وبنظمِ لؤلؤِ تاجِهـا المعقودِ
عُرِفوا بسيماها ، فليس لمُدَّعٍ ... من غيرِهم فيها سوى الجُلمود(١)
فَنِيَتْ أَحاديثُ النفوس بذكرِها ... وأَفاقَ كلُّ مُنافِسٍ وحسودِ
واليأْسُ إِحدى الراحتَين ، ولن ترى ... تَعَباً كظنِّ الخائبِ المكدودِ(٢)
فاسلمْ أَميرَ المؤمنين ، ولا تزلْ ... مُستعْلياً بالنصرِ والتـأْييدِ
نَعتدُّ عزَّك عزَّ دينِ محمدٍ ... ونرى بقـاءَك من بقاءِ الجودِ

إنصاف العلويين

لقى العلويون عسفاً واضطهاداً فى أيام المتوكل ، فلما تولى المنتصر أزال عنهم ما شملهم من حيف ، فسجل له البحترى تلك المعاملة الكريمة ، إذ قال من قصيدة طويلة يمدحه بها ، بعد مقدمة غزلية :

حَجَجنا البنيَّةَ شكرًا لما ... حبانا به اللهُ فى المنتصرْ(٣)
تطوّلَ بالعدْلِ لمّا قَضى ... وأَجملَ فى العفو لما قدَرْ(٤)
رَدَدْت المظالم ، واسترجعَتْ ... يداك الحقوقَ لمن قد قُهِرْ
وآلُ أَبى طالبٍ بعد ما ... أُذيعَ بسربِهمُ ، فابذَعَرْ(٥)
وَنالتْ أَدانيَهمْ جفـوة ... تكادُ السماءُ لها تنفَطِرْ(٦)

---

(١) السيمياء : الهيئة والعلامة . والجلمود : الصخر .
(٢) المكدود : المتعب .
(٣) البنية : الكعبة . وحباه به : أعطاه إياه .
(٤) تطول : أنعم .
(٥) السرب : الجماعة . وابذعر : تفرق .
(٦) الجفوة : القطيعة . وتنفطر : تنشق .

وصلْتَ شوابِكَ أَرحامِهم ... وقد أَوْشكَ الحبلُ أَن يَنْبَترْ (١)
فقرَّبتَ من حظِّهم ما نأَى ... وصفَّيتَ من شُربِهِم ما كَدَرْ (٢)
وأَينَ بكم عنهمُ ، واللقا ... ءُ لا عن تناءٍ ، ولا عن عَفَرْ (٣)
قرابتُكم ، بل أَشقَّاؤُكمْ ... وإِخوتُكم دون هذا البشرْ
يُشادُ بتقديمِكم في الكتابِ ... وتُتلى فضائلُكم في السُّوَرْ (٤)
وإِنَّ عليًّا لأَوْلى بكمُ ... وأَزكى يدًا عندكم من عُمرْ
وكلٌّ له فضلُهُ ، والحُجو ... لُ يوم التفاضُلِ ، دون الغُرَرْ (٥)
بقيتَ إِمامَ الهُدى للهدى ... تُجدِّدُ من نهجِهِ ما دَثَرْ (٦)

خليفة قتيل

شهد البحترى قتل المتوكل ، فكان لذلك أثر كبير فى نفسه ، ورثاه بهذه القصيدة التى بدأها بالحزن على مصير القصر الجعفرى الذى كان يسكنه الخليفة ، ثم تحدث عن مصرعه ، وغيبة أنصاره عنه ، وسخطه على قاتليه ، وبخاصة ولى العهد الذى كان ضالعاً مع القتلة ، وختمها برجائه أن يقتص الله من ظالميه :

مَحَلٌّ على القَاطولِ أَخلَقَ داثِرُهْ ... وعادتْ صُروفُ الدهرِ جيشاً تُغاوِرُهْ (٧)

---

(١) الشوابك : المشتبكة . وينبتر : ينقطع .

(٢) نأى : بعد .

(٣) التنائى : التباعد . وعفره : ضرب به الأرض . يريد قهره . ومعنى البيت : كيف تبعدون عنهم ، ولا تلقونهم لقاء الوادين ، لا لقاء النافرين عنهم ، الراغبين فى إذلالهم .

(٤) يريد بالكتاب : القرآن .

(٥) الحجول : بياض فى القوائم . وتفاضل الرجلان : ادعى كل منهما الفضل على صاحبه . والغرر : جمع غرة ، وهى بياض فى جبهة الفرس .

(٦) النهج : الطريق الواضح . ودثر : بلى وامحى .

(٧) القاطول : نهير من دجلة كان فى موضع سامرا ، كان عليه القصر الجعفرى . وأخلق : بلى . والداثر : البالى . وصروف الدهر : نوازله . وتغاوره : تحاربه .

كأَن الصَّبا تُوفِى نُذورًا إذا انبرَتْ — تراوِحُه أَذيالُها ، وتُباكِرُهْ(١)

ورُبَّ زمانٍ ناعمٍ ثَمَّ عهدُهُ — ترِقُّ حواشيه، ويورقُ ناضِرُهْ(٢)

تغيَّرَ حُسنُ الجعفريِّ وأُنسُه — وقُوِّض بادى الجعفريِّ وحاضرُه(٣)

تحمَّلَ عنه ساكنوهُ فُجاءَةً — فعادت سواءً دورُهُ ومقابرُه(٤)

إذا نحن زُرناه أَجَدَّ لنا الأَسى — وقد كان قبلَ اليومِ يُبْهَجُ زائرُه(٥)

ولم أَنْسَ وَحْشَ القصرِ إذ رِيعَ سِرْبُه — وإذ ذُعِرَتْ أَطلاؤه وجآذِرُهْ(٦)

وإذ صيح فيه بالرّحيل ، فهُتِّكَتْ — على عَجلٍ أَستارُه وَستائره(٧)

ووَحْشَتَه ، حتى كأَن لم يُقِمْ به — أَنيسٌ، ولم تَحْسُنْ لعينٍ مناظرُه(٨)

كأَن لم تَبِتْ فيه الخِلافةُ طَلقَةً — بَشَاشتُها ، والمُلكُ يُشرِقُ زاهره(٩)

ولم تجمع الدنيا إليه بهاءَها — وبهجتَها ، والعيشُ غَضٌّ مكاسِرُه(١٠)

---

(١) الصبا : ريح طيبة تهب من الشرق . وتوفى نذوراً ، أى كأن ذلك نذر عليها لهذا القصر . وتراوحه : تنتابه وقت الرواح أى آخر النهار . وتباكره : تهب عليه بكرة ، أى صباحاً .

(٢) زمان ناعم : أى ناعم أهله . وحواشيه : جوانبه . وترق حواشيه بمعنى أن أوقاته سعيدة . والشجر الناضر : الحسن . يريد أنه كان عهداً جميلا .

(٣) قوض : تهدم . وباديه : ما كان فيه مما جلب من البادية . وحاضره : ما جلب فيه من وسائل الحضارة .

(٤) تحمل : ارتحل . وسواء : متساوية فى إقفارها وخلوها من الأحياء .

(٥) أجد لنا الأسى : جدد لنا الحزن .

(٦) وحش القصر : نساؤه الجميلات الشبيهات بالبقر الوحشى فى جمال العيون . وريع : أفزع . والسرب : الجماعة . والأطلاء : جمع طلا ، وهى الظبية .. والجآذر : جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية . يشبه أبناء القصر بها لما فزعوا وشتتوا لمصرع الخليفة .

(٧) هتكت : مزقت . والأستار : جمع ستر . والستائر : جمع ستارة .

(٨) الوحشة : الخلو .

(٩) طلقة : مشرقة ضاحكة . والبشاشة : طلاقة الوجه . والزاهر : الحسن المشرق من الألوان .

(١٠) البهاء : الجمال . والبهجة : الحسن . وغض : ناعم طرى . ومكاسره : جمع مكسر ، ويقال : عود طيب المكسر : أى محمود .

فأَين الحجابُ الصعبُ حيث تمنَّعتْ   بهيبتِها أَبوابُه ومقاصرُه [١]

وأَين عميدُ الناسِ فى كلِّ نَوْبةٍ   تنوبُ ، وناهى الدهر فيهم وآمرُه [٢]

تخفَّى له مُغتالُه تحتَ غِرَّةٍ   وأَوْلى لمن يغتاله لو يُجاهرُه [٣]

فما قاتلَتْ عنه المَنايا جُنودُه   ولا دافعَتْ أَملاكُه وذخائرُه [٤]

ولا نَصَر المعتزَّ من كان يُرتجَى   له ، وعزيزُ القومِ مَن عَزَّ ناصرُهْ [٥]

تعرَّض نصلُ السَّيفِ من دونِ فتحِه   وغُيِّبَ عنه فى خُراسانَ طاهرُه [٦]

ولو عاشَ مَيْتٌ ، أَو تقرَّب نازحٌ   لدارتْ من المكروهِ ثَمَّ دوائرُه [٧]

ولو لعُبَيْدِ الله عونٌ عليهمُ   لضاقتْ على وُرَّادِ أَمرٍ مَصادرُه [٨]

حُلومٌ أَضلَّتها الأَمانى ، ومدَّةٌ   تناهت، وحَتْفٌ أَوشكَتْه مَقادرُه [٩]

---

(١) تمنع به : احتمى به . والمقاصر : جمع مقصورة ، وهى الحجرة من البيت .

(٢) عميد الناس : سيدهم ، يريد به الخليفة ، والنوبة : النازلة . وناهى الدهر ... المتصرف النافذ الحكم ، كأنه يملى على الدهر ما يريد .

(٣) تخفى : تستّر وتوارى . ومغتاله : قاتله غيلة . والغرة : الغفلة .

(٤) ذخائر : جمع ذخيرة ، وهى المخبأ لوقت الحاجة .

(٥) المعتز : من يعد نفسه عزيزاً بسواه ، فيكون معتزاً به . وعز ناصره : قوى معينه .

(٦) نصل السيف : حده . وفتحه : الفتح بن خاقان ، نديم المتوكل الذى قتل معه أيضاً . وطاهره : طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين والى خراسان فى ذلك الحين .

(٧) النازح : البعيد . ومعنى البيت : لو عاش هذا النديم ، أو كان ذلك الغريب حاضراً لحدثت أمور عظيمة ، ولانتقم للمقتول .

(٨) عبيد الله : هو عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل . والوراد : الذين يردون الماء أو الأمور . وضاقت مصادره : عز الخلوص منه . ومعنى البيت : لو يعان عبيد الله على قتلته لأخذهم ، فلا يفلتون من عقابه .

(٩) حلوم جمع حلم (بالكسر)، وهوالعقل . والحتف : الموت . وأوشكته : قربته . والمقادر : جمع مقدار ، وهو : القدر . ويشير بذلك إلى المنتصر بن المتوكل وشيعته من الأتراك الذين تآمروا على قتل الخليفة .

ومُغْتَصَب للقتل لم يُخْشَ رَهْطُهُ ولم تُحْتَشَم أَسبابُه وأَوَاصِرُه (١)
صَريعٌ تقاضاه السيوفُ حُشاشةً يجودُ بها ، والموتُ حُمْرٌ أَظافرُه (٢)
أُدافعُ عنه باليدين ، ولم يكن لِيَثْنِى الأَعادى أَعزلُ الليلِ حاسِرُه (٣)
ولوكان سيفى ساعةَ الفتْكِ فى يدى دَرَى الفاتكُ العَجْلانُ كيف أُساوِره (٤)
حرامٌ علىَّ الرَّاحُ بعدكَ ، أو أَرَى دماً بدمٍ يجرى على الأَرضِ مائرُه (٥)
وهل أَرْتَجِى أَن يطلب الدَّمَ وَاترٌ يَدَ الدهر ، والموتورُ بالدَّمِ واترُه (٦)
أَكان ولىُّ العهدِ أَضمرَ غَدْرةً فمِنْ عَجبٍ أَن وُلِّىَ العهْدَ غادِرُه (٧)
فلا مُلِّىَ الباقى تُراثَ الذى مضى ولا حَمَلَتْ ذاك الدُّعاءَ منابرُه (٨)
ولا وَأَلَ المشكوكُ فيه ، ولا نَجَا من السيفِ ناضِى السيفِ غدراً وشاهِرُه (٩)

---

(١) الرهط : القبيل والجماعة ، وتحتشم : يستحى منها . والأسباب والأواصر : الصلات التى تربط بينه وبين قاتله .

(٢) تقاضاه السيوف : تأخذ منه . يقال : تقاضاه الدين : إذا طلبه وقبضه منه . والحشاشة : بقية الروح من المريض والجريح .

(٣) أعزل الليل : أعزل فى الليل . والأعزل : من لا سلاح معه . ويريد نفسه . وحاسره : لا درع معه فى هذا الليل .

(٤) الفاتك : القاتل على غفلة . والعجلان : المسرع . وأساوره : أواثبه ، وأدافعه .

(٥) الراح : الخمر . أو أرى : إلى أن أرى . والمائر : الجارى .

(٦) الواتر : الآخذ بالثأر . ويد الدهر : مد زمانه . والموتور : من قتل له قتيل ، فلم يأخذ بدمه أحداً . والواتر : من أحدث وتراً . ومعنى البيت : كيف أرتجى الثأر للخليفة مع أن صاحب الثأر هو ابنه المنتصر الذى قتله ، فهو واتر وموتور معاً . والاستفهام للنفى .

(٧) ولى العهد : هو المنتصر الذى خاف أن ينقل أبوه ولاية العهد إلى أخيه المعتز . والغدرة : الخيانة ونقض العهد .

(٨) ملى التراث : تمتع به طويلا . يدعو الشاعر على المنتصر ألا يتمتع بميراث أبيه ، وألا يخلفه ، ولا يدعى له على المنابر .

(٩) وأل : نجا . ونضا السيف : سله من غمده . وشهر سيفه : انتضاه ، فرفعه على الناس .

لَنِعْمَ الدَّمُ المسفوحُ ليلةَ جعفرٍ هَرَقتمْ ، وجُنْحُ الليلِ سُودٌ دَياجرُه[١]
كأَنَّكُم لم تعْلَموا مَن وليُّه وباغِيه تحتَ المُرهَفاتِ وثائرُه[٢]
وإنى لأَرجو أَن تُردَّ أُمورُكُم إلى خَلَفٍ من شخْصِه لا يغادرُه[٣]
مُقَلِّبِ آراءٍ ، تُخافُ أناتُهُ إذاالأَخرقُ العَجْلانُ خيفتْ بوادِرُه[٤]

٢ ــ الشاعر الاجتماعى

مغنّ بغيض

ساء البحترى فى هذه القصيدة خلقة المغنى ، وسوء أدائه للغناء فقال :

مُغَنِّيكَ للبُغضِ فيه سِمَهْ تَلوح على خِلقَةٍ مبهمهْ[٥]
تزيدُ الإهانةُ فى حالِهِ صلاحاً ، وتُفسِدُهُ التَّكْرِمَهْ[٦]
يُرَعِّشُ لَحْيَيهِ عند الغِناءِ كأَن به النافِضَ المؤلِمَهْ[٧]

---

(١) هرقتم : أرقتم . وجنح الليل : طائفة منه . والدياجر : جمع ديجور ، وهو الظلام .

(٢) وليه : صاحب دمه المطالب به . وباغيه : باغى الثأر له . والمرهفات : السيوف المرققة. وثائره : من يثور فى طلب الثأر له .

(٣) إنى لأرجو . . أى آمل أن يبقى الحكم فى ذريته ، لا يخرج منها .

(٤) مقلب آراء : ينظر فى الأمور ، ويتدبرها . ويأخذ أحكمها . والأناة : التأنى . وتخاف أناته : يرهب تدبيره فى الأناة . والأخرق : الضعيف الرأى . والبوادر : جمع بادرة ، وهى : الحدة : وما يبدو فى الغضب من غير روية . وخيفت بوادره ، أى خشيت عجلته التى تكون خطراً على الأمور .

(٥) يخاطب الشاعر بهذه القطعة من سمع المغنى عنده . والسمة : العلامة . والمبهمة : الغامضة .

(٦) التكرمة : الإكرام .

(٧) اللحى : عظم الحنك الذى عليه الأسنان . والنافض : حمى الرعدة .

ومنتشِرُ الحلقِ ، وَاهى اللَّهاةِ ... إذا ماشَدا ،فاحشُ الغلصمَهْ(١)
وأنفٌ إذا احمرَّ فى وجهه ... وقام توهَّمتَهُ مِحْجَمَــهْ(٢)
فكم شَذْرَةٍ ثَمَّ مَنِسيَّةٍ ... أُطيحَتْ ، وكم نَغْمةٍ مُدغمَهْ(٣)
عرائدُه أَبدًا جَمَّــةٌ ... وأَخلاقُه كَزَّةٌ مظلِمَهْ(٤)
كثيرُ التلفُّتِ والإعتراض ... شديدُ التَّفلّت والهَمهَمه(٥)
يجىءُ بما هو أَهلٌ له ... فلولا الحياءُ كسرنا فَمَه

ثياب جميلة وأخلاق سمجة

يشكو فى هذه القطعة من أناس أشحاء اتصل بهم ، يرتدون جميل الحلل ، ويتخلقون بأسوأ الخلال :

وأين يكونُ مغتَرِبٌ بدهر ... شَريدٌ فى حوادثِه طريدُ(٦)
وخلَّفنى الزمانُ على أُناسٍ ... وُجوهُهُمُ وأَيديهمْ حديدُ(٧)
اهم حُللٌ حِسنَّ ، فهنَّ بيضٌ ... وأَخلاقٌ سَمُجْنَ ، فهنَّ سُودُ(٨)
وأَخلاقُ البغالِ ، فكلَّ يومٍ ... يَعِنُّ لبعضِهم خُلُقٌ جَديدُ(٩)

---

(١) منتشر : منبسط . والواهى : مسترخى الرباط . واللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم . وشدا : غنى . والفاحش : القبيح ، وكل شىء جاوز الحد . والغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق .

(٢) المحجمة : آلة الحجم .

(٣) الشذرة (فى الأصل) : خرزة يفصل بها بين الجواهر فى النظم . ويريد بها هنا : ما يفصل به بين آجزاء الغناء .

(٤) العرائد : جمع عريد ، وهى العادة . والكز : الضيق .

(٥) التفلت : التخلص . والهمهمة : التكلم بالكلام الخفى .

(٦) الشريد : الطريد .

(٧) حديد : جامد لا تلين .

(٨) سمج : قبح .

(٩) يعن : يظهر .

وأَكثرُ ما لسائِلِهمْ لدَيهِمْ إذا ما جاءَ قولُهُمُ : تعودُ
أُناسٌ لو تـأمَّلَهمْ لبيدٌ بكى الخَلَفَ الذى يشكو لبيد(١)

جار ثقيل

يصف الشاعر فى هذا النص جاراً ملحاحاً فى طلب الطعام والشراب يدعى: ابن جبير ؛ قد منح معدة قوية لا يكاد الطعام يلقى فيها حتى تهضمه وتطلب سواه ، ولا يلبث الخوان أن يوضع أمامه ، حتى يقبل عليه فى شراهة يخاف رائيه أن يموت بها خنيقاً :

زائرٌ زارنى ، ليسأَلَ عن حَا لى،كما يسأَل الصّديقُ الصّديقا
كيفَ حالى ، وقد غدا ابنُ جُبيرٍ لَ دون الإخوانِ جارًا لَصيقًا ؟!(٢)
غادياً ، رائحاً علَىَّ ، فما يتـ ـرُكُنى أَن أُريحَ ، أَو أَن أُفيقا(٣)
يقتضينى الغَدَاءَ ، والشمس لم تَبْـ ـزُغْ طُلوعاً ، ولم تبلَّجْ شروقا(٤)
مِعدةٌ أَوّليةٌ كرَحَى البزَّا ر : يُلْقَى حَبًّا ، وتُلقِى دقيقا(٥)
ويدٌ ما تزالُ ترمى بأَحجا رٍ من اللُّقْمِ ، تُعجزُ المَنْجَنِيقا(٦)
وكأَن الفتى يَطُمُّ رَكايَا قد تهوَّرن أَو يسدُّ بُثوقا(٧)

---

(١) يشير بهذا البيت إلى قول لبيد :
ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب
(٢) لصيقاً : ملاصقاً لى .
(٣) الغادى : من يأتى أول النهار . والرائح : الآتى آخره .
(٤) تبزغ : تطلع . وتبلج : ظهر .
(٥) أولية : منسوبة إلى أول ، يريد معدة سباقة . والبزار : بائع البذر ، وهو : الحب .
(٦) اللقم : مخفف لقم . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة .
(٧) طم الركية : دفنها وسواها . والركايا : جمع ركية ، وهى البئر ذات الماء ، وتهور البناء : تهدم وسقط . والبثوق : موضع الكسر فى شط النهر .

صاح بُلْعُومُه ، فقلنا : المنادى صاح فى حلقِه : الطريقَ الطريقا (١)
فإذا جىءَ بالخِوَان تفزَّعْـ ـتُ ، وأَشفقْتُ أن يموت خنِيقا (٢)

بكاء قومه

يتحسر الشاعر فى هذه القصيدة على قومه الذين اختطف الموت عظماءهم ، ولم يكفهم ذلك بل اشتعلت بينهم نيران العداوة والبغضاء تنازعاً على الرئاسة ، والبحترى يحذرهم عواقب هذه الفرقة ، ويذكرهم بالشامتين المتربصين بهم :

أَقصِرْ ؛ فإن الدهرَ ليس بِمُقْصِرِ حتى يلُفَّ مُقَدَّماً بمؤخَّرِ (٣)
وإذا ذكرتُ بنى عُبيدٍ عَبَّدوا حُرَّ الدُّموعِ للَوْعةِ المتَذكِّرِ (٤)
أَكلتْهُمُ دُوَلُ الزمانِ ، وفلَّلَتْ من حدِّ شوكتِهم صروفُ الأَدهُرِ (٥)
وأَرى الضغائنَ ليس تَخبو منهُمُ فى مَعشرٍ إلا زكَتْ فى معشَرِ (٦)
مَهلًا بنى شِملاَلَ ، إن وُرُودَكم حوْضَ التقاطُعِ غيرُ سهلِ المصدَرِ (٧)
مـــا بالُكم تتقاذَفون بأَعيُنٍ فى لحظِها جَمرُ الغَضا المتسعِّرِ (٨)
تتجاذبون المجدَ جذْبَ تعجرُفٍ وتعجرُفُ الأَمجادِ بعضُ المنكرِ (٩)

(١) البلعوم : مجرى الطعام فى الحلق .
(٢) تفزعت : خفت . وأشفق عليه : حاذر ، وخاف .
(٣) أقصر : كف ، واترك . ومقصر : كاف تارك . ويلف : يضم ، ويجمع .
(٤) عبيد (بالتصغير) : اسم أبى الشاعر وجده الثانى . وعبدوا حر الدموع : صيروا الدموع الحرة عبدة ، واللوعة : حرقة الحزن .
(٥) فلل السيف : ثلمه . والشوكة : القوة والبأس . وصروف الدهر : نوائبه .
(٦) الضغائن : الأحقاد . وتخبو : تخمد وتنطفىء . وزكت : نمت .
(٧) شملال : جده الثالث .
(٨) الجمر : النار المتقدة . والغضا : شجر من الأثل ، وجمره يبقى زمناً طويلا لا ينطفىء . والمستقر : المتقد المشتعل .
(٩) التعجرف : التكبر ، والبغى . والأمجاد : جمع ماجد .

إنّ التّنازُعَ فى الرئاسةِ زَلّةٌ ... لا تُستقالُ ، ودعوة لم تُنصرِ[١]
أفنَى أوائلَ جُرْهُمٍ إفراطُهم ... فيه ، وأسرَعَ فى مَقاوِلِ حِمْيَرِ[٢]
فتحاجَزُوا من قبلِ أن تتحاجزوا ... عن مَنْهلٍ صافٍ وربعٍ مُقْفِرِ[٣]
ومن العجائبِ أن غِلَّ صُدورِكم ... لم يُطْفَ للحدثِ الجليلِ الأكبرِ[٤]
أوَ ما ترونَ الشّامتينَ أمامَكُمْ ... ووراءَكُمْ من مُضْمرٍ أو مُظْهرِ
من غير ذنْبٍ جئتموهُ سِوَى عُلاً ... زُهْرٍ لجدّكمُ الأغرِّ الأزْهَرِ[٥]
وكأنّما شَرَفُ الشّريفِ إذا انْتَمَى ... جُرْمٌ جناهُ على الوضيعِ الأصْغرِ[٦]

الشّاعر الوصّاف

ا ــ سحر الطّبيعة :

يصف البحترى بعض مظاهر الجمال فى الوجود ، فمن ذلك :

جمال الرّياض

فهذه روضة بدا زهرها متنوع الأشكال ، مختلف الألوان ، فكأنما هى نسيج موشى ، ومنه ما هو ذهبى مشرق على أغصانه المتمايلة فى فتور ، وذلك إذ يقول :

هَذِى الرّياضُ بَدَا لطَرْفِكَ نَوْرُها ... فأرتكَ أحسنَ من رياطِ السّندُسِ[٧]

---

(١) الزلة : الخطيئة . واستقال : طلب أن ينهض من سقوطه .

(٢) جرهم : قبيلة يمنية . ومقاول حمير : ملوك اليمن .

(٣) تحاجزوا : تمانعوا . ويكون المنهل صافياً إذا لم يشرب منه أحد . وهذا كناية عن فنائهم .

(٤) الغل : الحقد .

(٥) زهر : متلألئة مضيئة .

(٦) الجرم : الذنب .

(٧) النور : الزهر ، أو الأبيض منه . والرياط : جمع ريطة ، وهى ملاءة قطعة واحدة ، وكلها نسيج واحد . والسندس : ضرب من منسوج الحرير .

يَنْشُرْنَ وشياً مُذْهَباً ، ومُدَبَّجاً   ومَطارِفاً نُسِجت لِغَيْرِ الملبَسِ (١)
وأَرَتْكَ كافُورًا ، وتِبْرًا مُشْرِقاً   فى قائمٍ مِثْل الزُّمُرُّدِ أَمْلَسِ (٢)
مُتَمايِلِ الأَعناقِ ، فى حَرَكاتِه   كَسَلُ النَّعِيمِ ، وفترَةُ المتنعِّسِ (٣)
فإذا طَربْتَ إلى العُيُونِ وغُنْجِها   فَأَجِلْ لحَاظَكَ فى عُيُونِ النَّرجسِ (٤)

وتلك رياض بالجزيرة تداعب مياه دجلة ماءها ، ترى أزهارها منتثرة فيها كأنها يواقيت ، تأسر العين بألوانها إذا سطع عليها ضوء الشمس ، ويغرد فيها الطير ، فتتجاوب فى أرجائها أصوات الغناء ، وإذا ما هزت الريح أغصانها تمايلت ، كما تتمايل قدود العذارى ، واستمع إليه يقول :

سرى البرقُ يَلمَعُ فى مُزنةٍ   تَمُدُّ إلى الأَرضِ أَشْطَانَها (٥)
فكَمْ بالجزيرةِ من روضَةٍ   تُضاحك دِجْلَةُ ثُغْبانَها (٦)
تُريكَ اليواقيتَ منثورةً   وقد جَلَّلَ النَّوْرُ ظُهْرَانَها (٧)
غَرائبُ تخطَفُ لحظَ العُيُونِ   إذا جلَت الشمْسُ أَلوانَها (٨)
إِذَا غرّدَ الطَّيرُ فيها ثَنَتْ   إليكَ الأَغانىُّ أَلحانَها (٩)
كأَنَّ العَذَارَى تَمَشَّى بها   إذا هزَّت الريحُ أَفْنانَها (١٠)

---

(١) الوشى : نقش الثوب . والمذهب : المموه بالذهب . والمدبج : المنقوش . والمطارف : جمع مطرف ، وهو رداء من حرير ذو رسوم .
(٢) الكافور : نبت طيب زهره كزهر الأقحوان . والزمرد : حجر كريم شفاف شديد الخضرة .
(٣) الفترة : الانكسار والضعف .   (٤) الغنج : الملاحة فى العينين .
(٥) المزنة : السحابة الممطرة . والأشطان : الحبال ، يشبه بها خيوط المطر .
(٦) الثغبان : جمع ثغب ، وهو الغدير فى ظل جبل .
(٧) اليواقيت : جمع ياقوت ، وهو : حجر كريم صلب شفاف ، تختلف ألوانه ، وجلل : غطى . والظهران : جمع ظهر .
(٨) جلا : كشف .
(٩) ثنى الشيء : كان ثانيه ، والمعنى أن الطير إذا غرد فيها حمل إلى أذنيك ألحاناً كألحان الأغانى .
(١٠) العذارى : جمع عذراء ، وهى الفتاة . وتمشى . تتمشى . والأفنان : جمع فنن ، وهو : الغصن .

تَعانَقُ للقُرْبِ شَجْرَاؤُها	عِناقَ الأَحِبَّةِ أَسْكانَها(١)
فطورًا تَقُومُ منها الصَّبَا	وطورًا تُمَيِّلُ أَغْصانَها(٢)
جَنُــوحٌ تُنَقِّلُ أَفْياءَها	كما جرّت الخيلُ أرسانَها(٣)

سحابة

يصف فى هذه الأرجوزة سحابة ذات رعد وبرق ألقت مطرها على الأرض ، فرويت وتفتحت أزهار رباها ، وامتلأت غدرانها بالمياه :

ذاتُ ارتجازٍ بحنينِ الرَّعدِ	مجرورةُ الذَّيلِ ،صدُوقُ الوعْدِ(٤)
مسفوحةُ الدّمعِ لغَير وَجْدِ	لها نسيمٌ كنسيمِ الوردِ(٥)
ورنَّةٌ مثلُ زئير الأُسْدِ	ولَمْعُ بَرْقٍ كسيوفِ الهنْدِ(٦)
جاءَتْ بها ريحُ الصَّبَا من نَجدِ	فانتثرت مثلَ انتِثارِ العِقدِ(٧)
فراحتِ الأَرضُ بعيشٍ رَغْدِ	من وشْى أَنْوارِ الرُّبا فى بُرْدِ(٨)
كأَنما غُدْرَانُها فى الوَهْدِ	يَلْعبْن من حَبَابِها بالنَّرْدِ(٩)

---

(١) الشجراء : الشجر . والأسكان : جمع سكن ، وهو ما يستأنس به .

(٢) الصبا : ريح مهبها جهة الشرق .

(٣) جنوح : من جنح إذا مال، يريد الشمس. والأفياء : جمع فىء ، وهو : الظل. والأرسان : جمع رسن ، وهو : حبل الدابة .

(٤) ارتجز الرعد : صات . ومجرورة الذيل : تملأ الأفق ، وتتصل بالأرض .

(٥) مسفوحة الدمع : ذات دمع مراق . والوجد : الحب .

(٦) الرنة : الصوت .	(٧) انتثرت : ألقيت متفرقة .

(٨) عيش رغد : طيب واسع ، والوشى : نقش الثوب . والربا : المرتفعات . والبرد : الثوب المخطط .

(٩) الغدران : جمع غدير ، وهو قطعة من الماء يتركها السيل . والوهد : الأرض المنخفضة . والحباب : الفقاقيع التى تعلو الماء . والنرد : اللعبة المعروفة (بالطاولة) .

الرّبيع الضاحك

هذه قطعة يصف فيها الربيع ، وهو مقبل على الكون ضاحكاً جميلا ، تفتحت باكورة ورده ، واخضر شجره ، ورق نسيمه باعثاً فى النفوس اللذة والبهجة ، حتى كأنه أنفاس الأحبة :

أَتاكَ الرّبيعُ الطَّلْقُ يختالُ ضاحِكاً　　مِن الحسنِ ،حتَّى كادَ أَن يتكلَّما
وقد نَبَّه النَّيْرُوزُ فى غَسَق الدُّجَى　　أَوائِلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأَمسِ نُوَّما(١)
يُفَتِّقُها بَرْدُ النَّدَى ، فكأَنَّهُ　　يُبثُّ حديثاً كان قَبلُ مُكَتَّما(٢)
فمن شجرٍ ردَّ الرَّبيعُ لباسَهُ　　عليه ،كما نَشَّرتَ وَشْياً مُنَمْنَما(٣)
أَحَلَّ ، فأَبدَى للعُيُونِ بَشَاشَةً　　وكانَ قذًى للعَيْنِ إِذ كانَ مُحْرِمَا(٤)
ورقَّ نسيمُ الرِّيحِ ، حتَّى حَسِبتُه　　يجىءُ بأَنفاسِ الأَحِبَّةِ نُعَّما(٥)

من وصف للشام

يحن وهو بالعراق إلى رقة هواء الشام ، وما على ضفتى الساجور من الهضاب والكهوف :

حنَّتْ ركابِى بالعِراقِ ، وشَاقَها　　فى نَاجِرٍ بَرْدُ الشَّآمِ ورِيفُه(٦)
ومدافعُ السَّاجورِ حيثُ تقابَلَتْ　　فى ضفَّتَيْه تلاعُهُ وكهوفُه(٧)

(١) النيروز عند الفرس : أول أيام السنة الشمسية ، وغسق الدجى : ظلمة الليل . يريد أن مقدم الربيع يصحبه تفتح الورد .
(٢) يبث : يذيع . يشبه انتشار الأريج على أثر تفتح الورد بسر كان مكتوماً فأذيع .
(٣) الوشى : نقش الثوب . ومنمنم : محسن . ويشبه اكتساء الأشجار بالزهر بالنقش الجميل .
(٤) أحل : لبس ثياب الحل . والقذى : ما يقع فى العين فيؤلمها ، ويسيل دمعها من تبن ونحوه ، والمحرم : المتجرد من ثيابه فى الحج .
(٥) نعم : جمع ناعم وهو : قرير العين .
(٦) ناجر : الشهر الواقع فى صميم الحر .
(٧) مدافع الماء : أماكن اندفاعه . والساجور : نهر بمنبج مدينته . والتلاع : جمع تلعة ، وهى : ما ارتفع من الأرض . والكهف : كالمغارة فى الجبل ، إلا أنه أوسع منها .

ويصف شوقه إليه ، ويعده جنة عدن فى قوله :

أَزَاجِرٌ أَنا جُرْدَ الخيلِ ، أُجْشِمُها سيراً إلى الشَّام إغْذاذاً وإيجافا (١)
دَوافعٌ فى انخراقِ البرِّ ، موعدُهَا مَدَافِعُ البحرِ من بيروتَ أو يافا (٢)
حَتَّى نَحُلَّ ، وقد حلَّ الشرابُ لنا جنَّاتِ عدنٍ على السَّاجور أَلفافا (٣)

ويحب بطياس ، وروابيها المرتفعة ، ورياضها المبسوطة ، ومناهلها العذبة ، إذ يقول :

أَحْبِبْ إلينا بدار «عَلْوَةَ» من بِطْياسَ ، والمشرِفاتِ من أَكَمِه (٤)
بساطُ روضٍ تجرى مَنَابِعُهُ فى مُرْجَحِنِّ الغَمَامِ مُنْسَجِمِه (٥)
يَفْضُلُ فى آسِهِ ونَرْجِسِهِ نُعْمَانَ فى طلحِهِ وفى سَلَمِه (٦)
أَرْضٌ عَذَاةٌ ، ومَشْرَفٌ أَرِجٌ ومَاءُ مُزْنٍ يَفِيضُ فى شَبَمِه (٧)
هل أَرِدُ العذْبَ من مَنَاهِلِه أَو أَطْرُقُ النَّازلينَ فى خِيَمِه (٨)

أما دمشق فبلد يملأ العين حسناً ، وها هو ذا يتغنى بجمالها وسحبها ونباتها :

أَمَّا دمشقُ فقد أَبدَتْ محاسِنَهَا وَقد وَفَى لك مُطْرِيها بما وَعَدا (٩)

---

(١) جرد الخيل : الخيل القصيرة الشعر . وأجشمها : أكلفها . والإيجاف والإغذاذ : الإسراع فى السير .

(٢) دوافع : أى تسير مسرعة كالماء المندفع ، وانخراق البر : البر المتسع .

(٣) الألفاف : جمع لف ، وهو البستان المجتمع الشجر الملتف النبات .

(٤) بطياس : قرية عند باب حلب . والأكم : جمع أكة ، وهو ما ارتفع من الأرض .

(٥) ارجحن الشىء : مال ، واهتز ، وانسجم : انصب .

(٦) الآس : الريحان . ونعمان : واد بين مكة والطائف . والطلح : شجر ضخم له شوك . والسلم : شجر يدبغ به .

(٧) أرض عذاة : طيبة . والمشرف : المكان المرتفع ، من شرف : ارتفع . والأرج : ذو الرائحة الطيبة . والمزن : جمع مزنة ، وهى : السحابة ذات الماء . والشبم : البرد .

(٨) المناهل : جمع منهل ، وهو : موضع الشرب .

(٩) المطرى : المبالغ فى المدح .

إذا أردتَ ملأْتَ العينَ من بلدٍ مُسْتَحْسَنٍ ، وزمانٍ يُشْبِهُ البلدا
يُمْسِى السَّحابُ على أجبالِهَا فِرَقاً ويُصْبِحُ النَّبتُ فى صحرائِها بَدَدَا[1]
فلستَ تُبْصِرُ إلاَّ واكِفاً خَضِلاً أو يانِعاً خَضِرًا ، أو طائرًا غَردا[2]

وهى لذلك جنة ، هواؤها ندى ، وماؤها سلسال علب ، وعيشها حلو المذاق :

إنَّ دِمَشْقاً أصبحت جنَّـــة مخضرّةَ الرَّوضِ عَذَاةَ البِراق[3]
هواؤها الفضفاضُ غضُّ النَّدى وماؤُها السَّلسَالُ عذبُ المذَاق[4]
والدَّهـــرُ طَلَقٌ بين أَكْنَافِها والعيشُ فيها ذو حواشٍ رِقاق[5]
وكيف لا نؤثِرُهـــا بالهَوى وصيفُها مثلُ شتاءِ العراق[6]

من وصف العراق

كان الشام والعراق الوطنين الروحيين للشاعر ، وها هو ذا يصف ربوة بالعراق ، فيقول :

نَزَلُوا رَبْوَةَ العِراقِ ارتيـــادًا أىُّ أَرضٍ أَشدُّ ذكرًا ، وأَسْنَى[7]
بين دَيْرِ العَاقُولِ مُرْتَبَعٌ يُشْـ رِفُ مُحتلُّهُ إلى دَيْرِ قُنَّى[8]
حيثُ باتَ الزَّيتونُ مِن فوقِهِ النَّخْـ لُ عليه وُرْقُ الحمامِ تَغَنَّى[9]

---

(١) البدد : المتفرق .
(٢) الواكف : السائل . والخضل : الندى المبتل . واليانع : الطيب المدرك الذى حان قطافه .
(٣) العذاة : الأرض الطيبة . والأبرق : كل ما اجتمع فيه سواد وبياض .
(٤) الفضفاض : الواسع . والسلسال : الماء العذب .
(٥) الأكناف : جمع كنف ؛ وهو الجانب . والحواشى : الجوانب .
(٦) آثره : اختاره ، وفضله .
(٧) الارتياد : الطلب ، وأسنى : من السناء، وهو : الرفعة .
(٨) دير العاقول على شاطئ دجلة قريب من بغداد . وبالقرب منه دير قنى .
(٩) الورق : ما فى لونها بياض إلى سواد وتغنى : تتغنى .

وقال يصف منزله عند دجلة ، ومياه النهر ، وأمواجه ، وما على حافته من نخيل وأطيار :

منزلٌ لى بالعراقِ اخْتَرْتُهُ　　لم يَشُبْ حُرَّ يقينى فيه شَكّ
وإذا دِجلَةُ مدَّت شَأْوَهَا　　وجَرَى جَرْىَ اللُّجَيْنِ المُنْسَبِك(١)
عارَضتْ رَبْعِى بفَيْضٍ مُزْبِدٍ　　بينَ أَمْواجٍ تسامى وحُبُك(٢)
يتكفَّى النخلُ فى حَافَاتِها　　بالقَمَارىِّ تُغَنِّى أو تَبِك(٣)
حُنِيَتْ تلك العَرَاجِينُ على　　لؤلؤ غضٍّ ، وخُوصٍ كالشَّرَك(٤)

ويصف يوماً شاتياً عند دجلة فى متنزه لبغداد ، تصفر الرياح إذا مرت بأشجار الأثل فيه ، حتى تكاد تزعزعه ، ثم حملت إليه قطراً صغير الحب ، رواه ، كما روى الرياض على شاطئها ، وقد استدارت فى ذلك الموضع ، فكأنها هلال أو سوار :

رَضِينَا من مُخارق ، وابنِ خَيْرٍ　　بِصَوْتِ الأَثْلِ ، إذْ مَتَعَ النَّهارُ(٥)
تُزَعْزِعُهُ الشَّمالُ ، وقد تَـوَافَى　　على أنْفاسِهَا قَطْرٌ صِغارُ(٦)
غَـدَاة دجُنَّةٍ للغَيْثِ فيهـا　　خِلاَلَ الرَّوضِ حجٌّ واعتِمارُ(٧)
كأَنَّ الرِّيحَ والقَطْرَ المُناجِى　　خواطِرَهـا عِتابٌ واعتِذَارُ
كأَنَّ مَدَارَ دِجْلَةَ حين جَاءَتْ　　بأَجمعِها هلالٌ أو سِوَارُ

---

(١) الشأو : الغاية ، يريد بلغ مدها غايته . واللجين : الفضة . والمنسبك : المذاب المفرغ فى قالب .

(٢) عارضه : سار حياله . والحبك : الدروع ، يريد بها الأمواه المتجعدة .

(٣) يتكفى : يطول . والقمارى : جمع قمرية وهى ضرب من الحمام . وتبك : أراد تبكى .

(٤) العرجون : قنو النخلة ، وهو من النخل كالعنقود من العنب . والغض : الطرى الناعم . والشرك : حبائل الصيد .

(٥) مخارق وابن خير من المغنين المشهورين . والأثل : شجر عظيم صلب الخشب . ومتع النهار : بلغ غايته وارتفاعه .

(٦) توافى القوم : تتاموا .

(٧) الدجنة : الظلمة . ويريد بالحج والاعتمار : الزيارة .

ويصف البحترى المتوكلية ، وهى مدينة بناها المتوكل قرب « سامراء » ، فيقول :

أَرَى المتوكِّلِيَّةَ قد تعالَتْ محاسِنُها ، وأَكملَت التَّماما
قصورٌ كالكواكِبِ لامعاتٌ يَكَدْنَ يُضِئْنَ للسَّارِى الظَّلاَما
وبَرٌّ مثلُ وشْيِ البُرْد ، فيه جَنَى الحَوْذَانِ يُنْشَرُ والخُزامَى(١)
إذا بَرَقَ الربيعُ له كسَتْه غوادِى المُزنِ ، والرِّيحُ النُّعامَى(٢)
غرَائِبَ من فُنُونِ النَّبْتِ ، فيها جَنَى الزَّهْرِ الفُرَادَى والتُّؤامَى(٣)
تُضَاحِكُها الضُّحا طورًا ، وطَوْرًا عليها الغيثُ ينسجمُ انسِجاما(٤)

ب ــ الحيوان

أجاد الشاعر فى وصف ما تناوله من الحيوانات كالذئب ، وكان من أشهر وصاف الخيل :

ذئب ضار

يصف الشاعر فى هذه القصيدة ذئباً لقيه فى رحلة كان يقوم بها ليلا ، ويصور معركة دارت بينهما ، وانتهت بسقوط الذئب قتيلا ، وشواء البحترى له ، واتخاذ بعض لحمه طعاماً :

وَليلٍ كأَنَّ الصُّبحَ فى أُخْرَياتِهِ حُشاشَةُ نَصْلٍ ضَمّ إِفْرِنْدَهُ غِمْدُ(٥)

(١) الحوذان : نبات زهره أحمر فى أصله صفرة . والخزامى : نبت زهره من أطيب الأزهار . والجنى : ما يجنى وينشر : يذيع .
(٢) الغوادى : جمع غادية ، وهى القادمة فى أول النهار . والمزن : السحاب ذو الماء . والنعامى : ريح الجنوب .
(٣) التؤامى : المزدوجات .
(٤) انسجم الغيث : انسكب .
(٥) حشاشة نصل : بقية سيف . وإفرند السيف : جوهره ووشيه .

تَسَرْبَلْتُهُ ، والذئبُ وسنانُ هاجعٌ ... بِعَيْنِ ابنِ ليلٍ ، مالهُ بالكرى عَهْدُ(١)

أُثيرُ القَطَا الكُدْرِيَّ عن جَثَماتِه ... وتـألفُنى فيه الثعالِبُ والرُّبْدُ(٢)

وأَطْلَسَ ملءِ العيْنِ ، يحمِلُ زوْرَهُ ... وأَضلاعُهُ من جانِبَيْه شَوًى نَهْدُ(٣)

له ذَنَبٌ مثلُ الرِّشاءِ يَجُرُّه ... وَمَتْنٌ كَمَتْنِ القوسِ أَعوجُ مُنْأَدُّ(٤)

طواهُ الطَّوَى ، حتى استمرَّ مريرُهُ ... فمافيه إلَّا العظْمُ والرُّوحُ والجلدُ(٥)

يُقَضْقِضُ عُصْلاً فى أَسِرَّتِهَا الرَّدَى ... كقضْقَضَةِ المقرُورِ أَرعَدَهُ البَرْدُ(٦)

سَما لى ، وبى من شِدَّةِ الجوعِ ما به ... ببيدَاءَ لم تُعْرَفْ بها عيشةٌ رَغْدُ(٧)

كِلَانا بها ذِئْبٌ يُحَدِّث نفْسَهُ ... بصاحِبه ، والجِدُّ يُتْعِسُهُ الجَدُّ(٨)

عوَى ، ثمّ أقْعَى ، فارتَجَزْتُ ، فَهِجْتُهُ ... فأَقبَلَ مثلَ البرقِ يَتْبَعُهُ الرَّعْدُ(٩)

فأَوْجَرْتُهُ خَرْقَاءَ تَحْسَبُ ريشَها ... على كَوْكبٍ يَنْقَضُّ ، والليلُ مُسودُّ(١٠)

---

(١) تسربلته : سرت فيه . والوسنان : النائم غير المستغرق فى النوم . والهاجع : النائم . وابن الليل : دائم السير فيه . والكرى : النوم الخفيف .

(٢) أثير : أهيج . والقطا : جمع قطاة ، وهى : طائر فى حجم الحمام . والكدرى : المائل إلى السواد والغبرة . وجثماته : جمع جثمة ، كضربة ، وهى : المرقد . والربد : جمع أربد ، وهو : الأسد .

(٣) الأطلس : المغبر إلى سواد . وملء العين : طويل مهيب . والزور : أعلى وسط الصدر . والشوى : الأطراف . والنهد : البارز .

(٤) الرشاء : الحبل . والمتن : الظهر . ومنأد : معوج .

(٥) الطوى : الجوع . واستمر مريره : قوى بعد ضعف .

(٦) يقضقض عصلا : يصوت بأسنان صلبة معوجة . وأسرتها : جمع سرار وهو : الخط . والردى : الهلاك . والمقرور : من أصابه القر أى البرد .

(٧) سما لى : خرج لى ، وقصدنى . والبيداء : الصحراء . والعيش الرغد : الطيب الواسع .

(٨) الجد (بكسر الجيم) : الاجتهاد . والجد (بالفتح) : الحظ . وأتعسه : أشقاه .

(٩) أقعى : جلس على مؤخره . وارتجزت : إرفعت صوتى .

(١٠) أوجرته : طعنته . والخرقاء : السنان . وتحسب ريشها ... أى تظنها كوكباً منقضاً له ريش .

فما ازدادَ إلّا جُــرْأةً وصَرامةً   وأيْقَنْتُ أنَّ الأمرَ منه هو الجِدُّ(١)

فأتبعتها أُخرَى، فأضْلَلْتُ نصلَها   بحيثُ يكون اللُّبُّ ،والرّعبُ والحقدُ(٢)

فخرَّ ، وقد أوردتُه مَنْهَلَ الرَّدَى   على ظماٍ ، لو أنَّه عَذُبَ الوِرْدُ(٣)

وقُمْتُ ،فجمَّعْتُ الحصى ،فاشتويته   عليه ، وللرَّمضاءِ من تحته وَقْدُ(٤)

ونِلت خسيسًا منه ، ثمّ تركْتُهُ   وأقلعتُ عنه ، وهو منعفرٌ فرْدُ(٥)

فرس للغزو

يطلب الشاعر فى هذه القصيدة فرساً يغزو به أعداءه من الروم ، وهو لذلك يطلبه قوياً سريعاً ، ومما يلحظ فى القصيدة أن الشاعر قد استخدم كثيراً من الألفاظ الدقيقة فى موضعها ، وإن قل استخدامها :

فأعِنْ على غزوِ العدُوِّ بمُنْطَوٍ   أحشاؤُه طيَّ الكتابِ المُدْرَجِ(٦)

إمَّا بأشقَرَ ساطعٍ أغشَى الوغَى   منه بمثْل الكوكبِ المتأجِّجِ(٧)

مُتَسَرْبلٍ شِيَةً طَلَتْ أعطافَه   بِدَمٍ ، فما تلقاهُ غير مُضَرَّجِ(٨)

أو أدهَمٍ صافى السَّوادِ ، كأنَّه   تحتَ الكَمِيّ مُظَهَّرٌ بيَرَنْدَجِ(٩)

---

(١) الصرامة : المضاء .

(٢) أضللت نصلها : أدخلت حديدتها . وبحيث يكون . . . ، أى فى القلب .

(٣) المنهل : المورد .

(٤) الرمضاء : الأرض الحامية . والوقد : النار .

(٥) الخسيس : الدنىء الحقير . وأقلع عنه : تركه . ومنعفر : ممرغ فى التراب .

(٦) المدرج : الملفوف .

(٧) الأشقر : ذو لون يأخذ من الأحمر والأصفر . والوغى : الحرب . والمتأجج : الملتهب .

(٨) متسربل : لابس للسربال وهو القميص . والشية : مصدر وشى الثوب : حسنه بألوان، ونقشه . والأعطاف : جمع عطف ، وهو الجانب ، والمضرج : المصبوغ بالدم .

(٩) الأدهم : الأسود . والكمى : الشجاع : ولابس السلاح . واليرندج : صبغ .

ضَرمٍ يهيج السَّوْطُ من شُؤْبُوبِهِ   هَيْجَ الجَنَائبِ من حَريق العَرْفَج [١]
خَفَّتْ مواقِعُ وطئه ، فلو أنَّهُ   يجرى برمْلةِ عالجٍ لم يُرهِجِ [٢]
أو أَشْهَبٍ يَقَقٍ، يضىءُ وراءَهُ   مَتْنٌ كمتنِ اللُّجَّةِ المُتَرَجْرِجِ [٣]
تَخْفَى الحجُولُ ، ولو بَلَغْنَ لَبَانَه   فى أبيضٍ مُتَألِّقٍ كالدُّمْلُجِ [٤]
أَوْفَى بعُرْفٍ أسوَدٍ مُتَغَرْبِبٍ   فيما يليه ، وحافرٍ فَيْرُوزَجِى [٥]
أو أَبلَقٍ يَلْقَى العيونَ إذا بدا   من كلِّ لَوْنٍ مُعْجِبٍ بنمُوذَجِ [٦]
جذلانَ تحسُدُهُ الجيادُ إذا مشى   عَنَتاً بأحسنِ حُلَّةٍ لم تُنْسَجِ [٧]

---

(١) ضرم : شديد الغضب . والشؤبوب : شدة اندفاع كل شىء . والهيج : الثورة والتحرك والانبعاث . والجنائب : جمع جنوب، وهى : ريح الشمال . والعرفج : شجر. والمعنى أن الفرس يغضب ويهيجه السوط ، فيزيده شدة اندفاع ، كما تزيد ريح الجنوب نيران شجر العرفج اشتعالا .

(٢) عالج : موضع به رمل . وأرهج : أثار الغبار .

(٣) الأشهب هنا : الأبيض . واليقق : شديد البياض ناصعه . والمتن : الظهر . واللجة : معظم الماء .

(٤) الحجول : بياض القوائم . واللبان : الصدر . والدملج : حلق يلبس فى المعصم .

(٥) أوفى بالشىء : جاء به تاماً . والعرف : الشعر النابت فى محدب رقبة الفرس . ومتغربب : مسود حالك السواد . والفيروزج : حجر كريم أخضر .

(٦) الأبلق : ما فى لونه سواد وبياض .

(٧) العنت : الاعتراض فى المشى ، يريد مشى مختالا .

حـ ــ القصور العبّاسيّة :

عاصر البحترى خليفتين أولعا ببناء القصور ، هما : المتوكل ، وابنه المعتز ؛ فكان من الطبيعى أن يتغنى الشاعر بجمالها ، وضخامتها ، وأن يهنئ خليفتيه بما يبنيان :

الجعفرى

قصر بناه المتوكل ، وافتن فى زخرفته ، وجلب وسائل الحضارة إليه ، وشيده فوق ربوة عالية ، تجرى تحتها دجلة ، وأحاطت به حديقة فسيحة تلاعب الرياح أشجارها :

قد تمَّ حُسْنُ الجعفرِىِّ ، ولم يكُنْ ... ليتِمَّ إلا بالخليفةِ جَعْفَرِ
ملكٌ تبوَّأَ خيرَ دارٍ أُنْشِئَتْ ... فى خيرِ مَبْدًى للأَنَامِ ومَحْضرِ (١)
فى رأسِ مُشْرِفةٍ ، حَصَاهَا لُؤْلُؤٌ ... وتُرابُها مِسْكٌ يُشَابُ بعَنْبَرِ (٢)
مُخضَرَّةٌ ، والغَيْثُ ليسَ بسَاكِبٍ ... ومضيئةٌ ، واللَّيْلُ ليسَ بمُقْمِرِ
ظَهَرتْ لمُخْتَرَقِ الشَّمالِ ، وجاورت ... ظُلَلَ الغَمَامِ الصّائبِ المُسْتَغْزَرِ (٣)
فرفَعْتَ بنيانًا كأَنَّ مَنَارَهُ ... أَعلامُ رَضْوَى ، أَوشَوَاهِقُ خَيبَرِ (٤)
عالٍ على لحظِ العُيُونِ ، كأَنَّما ... ينظُرْنَ منهُ إِلى بياضِ المُشترى (٥)

---

(١) تبوأ المكان وبه : أقام به . والمبدى : مكان البدو . والمحضر : مكان الحاضرة . يريد فى خير مكان .

(٢) المشرفة : المرتفعة . ويشاب : يخلط .

(٣) ظهرت لمخترق الشمال : بدت مارة بشمال دجلة . والظلل : جمع ظلة وهى : السحابة المظللة . والصائب : المسكوب المنصب . والمستغزر : الغزير .

(٤) رضوى : جبل منيف بالحجاز . وخيبر ناحية بالقرب من المدينة بها سبعة حصون .

(٥) لحظ العيون : نظرها . والمشترى : أحد كواكب المجموعة الشمسية .

ملأَتْ جوانبُه الفضاءَ ، وعانَقَتْ شَرَفاتُه قِطَعَ السَّحَاب المُمْطِرِ (١)
وتسيرُ دِجْلَةُ تحته ، ففناؤُهُ من لُجَّةٍ غَمْرٍ ، وروْضٍ أَخْضر (٢)
شَجَرٌ تُلاعبُه الرِّياحُ ، فتنثنى أعطافُهُ فى سائحٍ مُتَفَجِّرِ (٣)

بركة الجعفرىّ

وضع المتوكل لهذا القصر بركة أجاد فى إبداعها ، وجعل لها قنوات تصب الماء فيها بقوة ، ووضع فيها سمكاً، وصور على جدرانها صوراً، وأحاطها بالبساتين المزدهرة؛ فقال البحترى يصف هذه البركة :

يامَنْ رأى البرْكةَ الحسناءَ رُؤْيتُها والآنسات إذا لاحتْ مَغانيها (٤)
بحَسْبِها أنَّها فى فَضْلِ رُتْبَتِها تُعَدُّ واحدةً ، والبحرُ ثانيها
ما بالُ دِجلةَ كالغَيْرَى : تنافِسُها فى الحُسْنِ طورًا ، وأطوارًا تُباهيها (٥)
كأنَّ جنَّ سليمانَ الَّذين وَلُـوا إبداعَها ، فأَدَقُّوا فى معانيها (٦)
فلو تمرُّ بها « بِلقِيسُ » عن عَرَضٍ قالت: هى الصَّرحُ ، تمثيلا وتشبيهاً (٧)

---

(١) الشرفات : جمع شرفة ، وهى : مثلثات أو مربعات تبنى متقاربة فى أعلى القصر .
(٢) الفناء : الساحة ، التى أمام البيت ، اللجة : معظم الماء . والغمر : الماء الكثير .
(٣) أعطاف : جمع عطف ، وهو الجانب . والسائح : السائل .
(٤) المغانى : جمع مغنى ، وهو المنزل .
(٥) تنافسها فى الحسن : تحرص على أن تنال فى الحسن ما نالته البركة . وتباهيها : تفاخرها .
(٦) ولى الشىء : قام به . وإبداعها : إجادة عملها .
(٧) بلقيس : ملكة سبأ ، وكان لها قصر ممرد (مصقول) من قوارير (زجاج) . وعن عرض : على غرة . والصرح : القصر .

تنصَبُّ فيها وُفُودُ الماءِ مُعْجَلَةً ... كالخيلِ خارجةً من حَبْل مُجْرِيها(١)

كأنما الفضَّـــةُ البَيْضَاءُ سائِلَةً ... من السَّبَائِك تجرِى فى مجاريها(٢)

إذا عَلَتْها الصَّبَا أبدَتْ لها حُبُكاً ... مِثْلَ الجَوَاشِنِ مصْقولاً حواشيها(٣)

فحاجِبُ الشَّمْسِ أحياناً يُضاحِكُها ... وريِّقُ الغيثِ أحياناً يُبَاكيها(٤)

إذا النجومُ تراءَتْ فى جَوانبِها ... ليلا حسبتَ سماءً ركِّبتْ فيها

لا يبلغ السَّمكُ المحصورُ غايتَها ... لبُعْدِ ما بينَ قاصِيها ودانيها(٥)

يَعُمْنَ فيها بأوسَاطٍ مُجَنَّحَةٍ ... كالطَّيرِ تنغضُّ فى جَوٍّ خوافيها(٦)

لَهُنَّ صَحْنٌ رحيبٌ فى أسافِلِها ... إذا انحطَطْنَ ، وبَهْوٌ فى أعاليها(٧)

صُورٌ إلى صُورَةِ الدُّلْفِينِ ، يؤنِسُها ... منه انزِواءٌ بعينيهِ يُوَازِيهَا(٨)

---

(١) معجلة : مستحثة .

(٢) السبائك : جمع سبيكة وهى القطعة من الفضة أو نحوها ، ذوبت وأفرغت فى قالب .

(٣) الصبا : ريح مهبها الشرق . والحبك : جمع حبيكة ، وهى : الطريقة فى الرمل . والجواشن : جمع جوشن ، وهى : الدرع . والدرع ذات تغضن . والمصقول : الأملس . والحواشى : الجوانب . والمعنى : أن ريح الصبا تؤلف غضوناً على صفحة الماء ، فى أواسط البركة ، وتترك جوانبها مصقولة ؛ لأنها لا تتعرض لها .

(٤) حاجب الشمس : جانب منها . وريق الغيث : أوله وأفضله .

(٥) القاصى : البعيد . والدانى : القريب ، وبينهما طباق .

(٦) مجنحة : ذات أجنحة ، يريد بها الزعانف . وتنغض : تتحرك وتضطرب فى ارتجاف . والخوافى : ريشات فى الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت .

(٧) الصحن : الفضاء وسط الدار . والبهو : ما يضرب أمام البيوت منزلا للضيوف .

(٨) صور : جمع أصور ، وهو : المائل . والدلفين : سمكة بحرية . ويوازيها : يقابلها ويواجهها .

تَغْنَى بَسَاتينُها القُصوَى برؤْيتها   عن السَّحَائِب مُنْحَلاًّ عَزاليها(١)

محفوفةٌ برياضٍ لا تزالُ تَرَى   ريشَ الطَّواويسِ تحكِيه ويَحكِيها(٢)

د ـ إيوان كسرى* :

من غرر شعر البحترى فى الوصف هذه القصيدة التى يصف فيها إيوان كسرى ، وقد دفعه إلى زيارة هذا الإيوان رغبته فى أن يخفف عن نفسه آلام خطوب نزلت به ، فقام برحلة إلى المدائن عاصمة الفرس القديمة ، وكان إيوان كسرى لا يزال قائماً بها .

وقد اعترف البحترى فى هذه القصيدة بما كان للفرس من مجد عال وملك واسع ، ووصف من آثار الفرس الجرماز ، وهو بناء ضخم كان بالمدائن وعلى أحد جدرانه صورة لحرب دارت بين الروم والفرس ، أتقن الرسام فى تصويرها ، وأجاد البحترى فى وصفها ، ووصف الإيوان ، وجلاله ، ودقة صنعه ، وحدثنا الشاعر عما جال بنفسه من الخواطر ، وهو يجول فى هذه الآثار الضخمة ، وما مر به من خيال صور له ماضى هذه الآثار :

صُنْتُ نفسِي عمّا يُدَنِّسُ نفسِي   وترفَّعْتُ عن جَدَا كُلِّ جِبْسِ(٣)

وتَمَاسَكْتُ حينَ زعْزَعَنِى الدَّهـ   ـرُ التِماساً منه لتَعْسِي ونَكْسِى(٤)

---

(١) غنى بالشىء عن غيره : اكتفى . والقصوى : البعيدة . والعزالى : جمع عزلاء ، وهى : مصب الماء من القرب ونحوها .

(٢) حكاه : شابهه .

* الإيوان : المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاثه حيطان . وإيوان كسرى يريد به قصره .

(٣) الجدا : العطاء . والجبس : الجبان اللئيم .

(٤) تماسكت : ثبت . وزعزعنى : حركنى بعنف . ويريد نالنى بخطوبه . والتماساً منه : طلباً منه ومحاولة . والتعس : الهلاك أو الشر . والنكس : انقلاب الرجل على رأسه ، يريد بذلك الهزيمة والسقوط .

بُلَغٌ من صُبَابَةِ العَيْشِ عندى ... طَفَّفَتْها الأَيَّامُ تَطفيفَ بَخْسِ (١)

وبَعيدٌ ما بينَ واردِ رِفْـهٍ ... عَلَلٍ شُربُهُ ، ووارِدِ خِمْسِ (٢)

وكأَنَّ الزَّمـانَ أَصبح محمُو ... لاً هواهُ مع الأَخَسِّ الأَخسِّ (٣)

واشترائى العِراقَ خُطَّةُ غَبْنٍ ... بعدَ بَيْعِى الشَّآمَ بَيْعةَ وَكْسِ (٤)

لا تَرُزْنِى مَزَاولاً لاختبارى ... عندَ هذِى البَلْوَى ، فتُنْكِرَ مَسِّى (٥)

وقديمـاً عَهِدْتَنِى ذَا هَنَـاتٍ ... آبياتٍ على الدَّنيّاتِ شُمْسِ (٦)

ولَقَدْ رابَنِى نُبُوُّ ابنِ عمِّى ... بعد لينٍ من جانبيهِ وأُنسِ (٧)

وإذا ما جُفِيتُ كنتُ حَرِيًّا ... أن أُرَى غيرَ مُصْبِحٍ حيثُ أُمْسِى (٨)

حضرتْ رحلِىَ الهُمُومُ ، فوجَّهْـ ... ـتُ إلى أَبيضِ المدائن عَنْسِى (٩)

---

(١) البلغ : جمع بلغة ، وهى : ما يكفى من العيش ولا يزيد . والصبابة : البقية. وطففتها : نقصتها . والبخس : الغبن والظلم .

(٢) الرفه : لين العيش وطيبه . والعلل : الشرب تباعاً. والخمس (بالكسر) : من إظماء الإبل ، وهى : أن ترعى ثلاثة أيام ، وترد الماء فى اليوم الرابع . ويمثل بذلك حاله ، وأنه فى شظف من العيش .

(٣) محمولا هواه : يحب . والأخس : النذل. أى كأن الزمان يحب أنذال الناس ، ويظلم خيارهم .

(٤) اشترائى العراق : إقامتى بها . والغبن : الخداع ، وضعف الرأى . وبيع الشام : رحلته عنها مع أنها وطنه . والوكس : النقصان والخسران .

(٥) رازه : جربه . ومزاولا : محاولا . وتنكر مسى : تجدنى أبياً عنيفاً منكر الجانب .

(٦) الهنات : خصال (شر) . وآبيات على الدنيات : لا ترضى بالخسيس الدون ، بل تأنف منه . والشمس : العنيدة التى لا تذل .

(٧) رابنى : أوقعنى فى الريب ، وهو : الشك . والنبو : النفور والجفوة . وابن عمه : ربما كان يريد به الخليفة المنتصر ؛ فالبحترى قحطانى يمنى ، والخليفة عدنانى ، وقحطان وعدنان كأنهما أخوان ؛ لأنهما أبوا العرب ، وعليه يكون البحترى قد قال هذه القصدة بعد قتل المتوكل وإعراض المنتصر عنه ، بعد أن هجاه فى رثاء أبيه .

(٨) الحرى : الخليق . والمعنى : إذا جفيت تنقلت ، فلا أصبح فى مكان حتى أمسى فى سواه .

(٩) حضرت : نزلت . والهموم : الأحزان . والعنس : الناقة الصلبة .

أتسلَّى عن الخُطوب وآسَى ... لمحلٍّ من آلِ ساسانَ درْسِ(١)
ذكَّرتنيهِمُ الخُطُوبُ التَّوالى ... ولقد تُذْكِرُ الخطوبُ وتُنسِى(٢)
وهُمُ خافِضونَ فى ظِلٍّ عــالٍ ... مُشرِفٍ يُحْسِرُ العيونَ ويُخسِى(٣)
مُغلَقٍ بابُهُ على جبَل القَبْـــ ... ـقِ إلى دارَتَىْ خِلاطٍ ومَكسِ(٤)
حِلَلٌ لم تكنْ كأطلالِ سُعْدى ... فى قِفارٍ من البَسابِسِ مُلْسِ(٥)
ومَساعٍ لــولا المحاباةُ مِنِّى ... لم تُطقْها مَسْعاةُ عَنْسٍ وعَبْسِ(٦)
نقل الدَّهْرُ عهدَهُنَّ عن الجِـ ... ـدَّةِ ، حتَّى غَدَوْنَ أَنْضاءَ لُبْسِ(٧)
فكأنَّ «الجِرمازَ» من عدم الأُنْـ ... ـسِ ، وإخْلالِهِ بنيَّةُ رَمْسِ(٨)
لو تراهُ علمتَ أنَّ اللَّيــالِى ... جعلتْ فيه مأْتماً بعدَ عُرْسِ
وهو يُنبيكَ عن عجائب قومٍ ... لا يُشَابُ البيانُ فيهم بلَبْسِ(٩)

---

(١) آسى : أحزن . وآل ساسان : أكاسرة الفرس . والدرس : الذى عفا أثره .

(٢) التوالى : المتتالية .

(٣) خافضون : ذوو عيش رغيد . وفى ظل عال : فى ظل قصر مرتفع ، ويريد به قصر الأكاسرة. ويحسر العيون : يضعفها ، إذا نظرت إليه ، لتتبين ارتفاعه . ويخسى : يرد العين كليلة .

(٤) جبل القبق : جبال القوقاز . والدارة : كل بلاد واسعة بين جبال . وخلاط ومكس : من بلاد أرمينية . يشير بذلك إلى ما كان لأصحاب القصر من واسع السلطان .

(٥) يذكر فى هذه الأبيات فضل الفرس على العرب . الحلل : جمع حلة ، وهى الطائفة من البيوت. والبسابس : جمع بسبس : وهو الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ. والملس : الخالية.

(٦) المساعى : جمع مسعاة ، وهى : المكرمة . ولم تطقها : لم تقدر عليها. وعنس : قبيلة يمنية . وعبس : قبيلة مضرية فى نجد .

(٧) الجدة : حالة الشيء الجديد . وأنضاء : جمع نضو ، وهو المهزول من الحيوان ، والثوب البالى . واللبس : الاستعمال ، أى أبلاها الدهر بعد الجدة .

(٨) الجرماز : بناء عظيم كان عند أبيض المدائن . والبنية : البناء . والرمس : القبر .

(٩) يشاب : يخاط . والبيان : المنطق الواضح . واللبس : عدم الوضوح .

فإذا مــا رأيتَ صورةَ أَنْطَا كِيَةَ ارتَعْتَ بين رُومٍ وفرس[١]
والمنــايا مواثِلٌ ، وأَنوشِرْ وانَ يُزْجى الصُّفُوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ[٢]
فى اخْضِرَارٍ من اللِّباسِ على أَصْـ فَرَ يختالُ فى صَبيغةِ وَرْسِ[٣]
وعِرَاكُ الرِّجــالِ بين يَدَيْهِ فى خُفُوتٍ مِنهُم وإغماضِ جَرْسِ[٤]
من مُشِيحٍ يهوِى بِعامِلِ رُمْحٍ ومُلِيحٍ من السِّنانِ بتُرْسِ[٥]
تَصِفُ العينُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحيا ءٍ ، لهُم بينَهم إشارةُ خُرْسِ[٦]
يغْتلِى فيهمُ ارتيابِىَ ، حتى تتقرَّاهُمُ يداىَ بلمْس[٧]
قد سقانى ، ولم يُصرِّدْ أَبو الغَوْ ثِ على العَسكرينِ شَرْبةَ خَلسِ[٨]
من مُدامٍ تَخالُها ضَوْءَ نَجْمٍ نوَّرَ اللَّيلَ ، أو مُجاجَةَ شمْسِ[٩]
وتراهــا إذا أَجَدَّت سرورًا وارتياحاً للشَّاربِ المتحسِّى[١٠]

---

(١) أنطاكية : بلد بالشام وقعت عنده معركة بين الفرس والروم ، وقد صورت فى الإيوان . وارتعت : فزعت .

(٢) مواثل : قائمات تنتظر العمل وقت الحرب . وأنوشروان : أحد الأكاسرة يدعى : خسرو الأول (٥٣١ – ٥٧٩ م) . ويزجى : يسوق . والدرفس : العلم الكبير .

(٣) يختال : يتبختر ويتكبر . والورس : نبات ذو صبغة صفراء .

(٤) الخفوت : سكوت الصوت . والجرس : الصوت . وإغماضه : إخفاؤه وإبهامه .

(٥) المشيح : الحذر المجد . وعامل الرمح : صدره والمليح : الحذر . والسنان : السيف . والترس : المجن .

(٦) تصف العين : تخيل لرائى الصورة .

(٧) يغتلى : يزبد . وارتيابى : شك فى حياتهم . وتتقراهم : تتبعهم . أى أن الشك يداخلنى فى أنهم أحياء ، حتى ألمسهم فى الصورة بيدى ، لأتبين هل هم أحياء حقًّا كما يخيل إلى .

(٨) صرد الشراب : قلله . وأبو الغوث : ابن البحترى . وشربة خلس : شربة عاجلة .

(٩) المجاجة : الريق ترمى به من فمك .

(١٠) أجدت : أحدثت . وتحسى المرق : شربه شيئاً بعد شئ .

أُفرِغَتْ فى الزُّجاجِ من كلِّ قَلبٍ   فهى محبُوبةٌ إلى كلِّ نَفسِ
حُلُمٌ مُطبِقٌ على الشَّكِّ عينى   أم أَمَانٍ غيَّرن ظنِّى وحَدْسِى(١)
وكأَن الإيوانَ من عَجَبِ الصَّنْـ   ـعةِ جَوْبٌ فى جَنْبِ أَرْعَنَ جَلْسِ(٢)
يُتَظَنَّى من الكآبةِ أن يبـ   ـدُو لِعَيْنَىْ مُصَبِّحٍ أَو مُمَسِّى(٣)
مُزعَجاً بالفراقِ عن أُنسِ إلْفٍ   عزَّ ، أَو مُرْهَقاً بتطليقِ عِرْسِ(٤)
عكست حظَّهُ اللَّيالى ، وبات الـ   ـمُشترى فيه ، وهوكوكبُ نَحْسِ(٥)
فهو يُبْدِى تَجلُّدًا ، وعليهِ   كَلْكلٌ من كَلاكِلِ الدَّهْر مُرْسِى(٦)
لم يَعِبْهُ أَن بُزَّ من بُسُطِ الدِّيبـ   ـاجِ ، واستُلَّ من سُتُورِ الدِّمَقْسِ(٧)
مُشمَخِرٌّ تعــلو له شَرفاتٌ   رُفِعَتْ فى رُءُوس رَضوى وقُدْسِ(٨)
لابساتٌ من البياضِ ، فما تُبْـ   ـصِرُ منها إلَّا غلائلَ بُرْسِ(٩)

---

(١) الحدس : التوهم .

(٢) عجب الصنعة : الصنعة الدقيقة المتينة . والجوب : الخرق ، والأرعن : الجبل ذو الرعن (بسكون العين) وهو : أنف يتقدم الجبل . والجلس : الجبل العالى . أى أن الإيوان يلوح لمتانة بنيانه ودقة صنعته كأنه من فعل الطبيعة لا الإنسان ، فكأنه بيت منقور فى جبل ، اتخذه الأكاسرة مساكن لهم .

(٣) يتظنى : يظن . ويبدو : يظهر . والمصبح : رائيه صباحاً . والممسى : رائيه مساء .

(٤) المرهق : المكلف ما لا يطيق . والمعنى : يظن لرائيه فى الصباح أو فى المساء أنه يظهر أمام عينيه ، لما لبسه الإيوان من كآبة — كأنما أزعجه فراق أليف عزيز عنده ، أو كلف تطليق عروس يحبها .

(٥) المشترى كوكب يرمز به إلى السعادة ، ولكنه تحول فى هذا القصر فصار نحساً .

(٦) التجلد : تكلف الجلد والصبر . والكلكل : الصدر . والمرسى : الثابت .

(٧) بز : سلب . والديباج : الثوب الحريرى . واستل : أخرج وانتزع . والدمقس : الحرير .

(٨) المشمخر : العالى . والشرفات : ما ارتفع من بنائه . ورضوى ، وقدس : جبلان . والشاعر يشبه القصر فى ارتفاعه بهذين الجبلين .

(٩) الغلائل : جمع غلالة ، وهى : شعار يلبس تحت الثوب . والبرس : القطن أوشبيه به .

ليس يُدْرَى أَصُنْعُ إنس لِجنٍّ سكنوهُ ، أَم صُنْعُ جِنٍّ لإنس
غير أَنِّى أَراه يَشهَدُ أَن لَمْ يَكُ بانيه فى المُلُوكِ بنِكْسِ[١]
فكأَنِّى أَرى المواكبَ والقو مَ ، إذا ما بَلَغتُ آخِرَ حِسِّى[٢]
وكأَنَّ الوُفُودَ ضاحِينَ حَسْرَى من وُقُوفٍ خَلفَ الزِّحام وخُنْسِ[٣]
وكأَنَّ القِيانَ وَسْطَ المقاصي رِ يُرَجِّعْنَ بين حُور ولُعْسِ[٤]
وكأَنَّ اللِّقاءَ أَوّلُ من أَم سِ ، ووشْكَ الفِرَاق أَوّلُ أَمس[٥]
وكأَنَّ الذى يريد اتِّباعاً طامِعٌ فى لِقائِهم صُبْحَ خَمس[٦]
عُمِّرَت للسُّرُور دَهْرًا ، فصارَتْ للتَّعَزِّى رِبَاعُهُمْ والتَّأَسِّى[٧]
فلَهـا أَن أُعينَها بدموعٍ مُوقَفَاتٍ على الصَّبابةِ حُبْسِ[٨]
ذاك عندى ، وليست الدارُ دارِى باقترابِى منها ، ولا الجنسُ جنسى
غيرَ نُعْمَى لأَهلها عند أَهْلى غرسُوا من زَكائها خيرَ غَرس[٩]

---

(١) النكس : المقهور الذليل .
(٢) يتخيل الشاعر ماضى القصر ، وما كان له من مجد ، وما كان يملؤه من وسائل الترف والنعيم .
(٣) حسرى : كاشفين عن رءوسهم . والخنس : المتأخرون .
(٤) القيان : المغنيات . والمقاصير : حجرات المنزل . ويرجعن : يرددن ويكررن . والحور : جمع حوراء ، وهى : ذات العين التى اشتد بياض بياضها وسواد سوادها. واللعس: جمع لعساء، وهى : من فى شفتها سواد مستحسن .
(٥) وشك الفراق : أى الفراق السريع .
(٦) أى كأن من يريد أن يتبعهم ليلتقى بهم طامع فى هذا اللقاء ، بعد أن يسير خمس ليال ، يلقاهم صبح الليلة الخامسة .
(٧) التعزى : التبصر والتسلى . والتأسى : اتخاذ الأسوة .
(٨) موقفات على الصبابة : محبوسات على الولع الشديد . وحبس : لا تتعداها .
(٩) الذكاء : النماء .

أيَّدوا مُلكَنا ، وشدُّوا قُواهُ بحُماةٍ تحتَ السَّنوَّر حُمْسِ(١)

وأعــانوا على كتائب أرْيا طَ بطعن على النُّحور ودَعْسِ(٢)

وأرانى من بَعْدُ أكلفُ بالأشْ رافِ طُرًّا من كل سِنخٍ وجِنسِ(٣)

هـ ـ معركة بحرية :

يصف الشاعر فى هذه القصيدة قائداً بحريًّا تحت إمرته جند شجعان التقوا بجند الروم فى البحر ، يقودون أسطولا ضخماً . ودارت المعركة بين الفريقين فى قوة وعنف ، وانتهت بهزيمة الروم :

غدوْتَ على الميمونِ صُبحاً ، وإنما غدا المركَبُ الميمونُ تحت المظفَّرِ(٤)

أطلَّ بعطفيْهِ ، ومرَّ ، كأنما تشرَّفَ من هادِى حِصانٍ مُشهَّرِ(٥)

إذا زمجر النُّوتىُّ تحت عَلاتِه رأيتَ خطيباً فى ذُؤابةِ مِنْبَرِ(٦)

إذا عَصَفَتْ فيه الجَنوبُ اعتلى له جناحا عُقابٍ فى السماءِ مُهَجرِ(٧)

---

(١) الحماة : المانعون لحوزتهم . والسنوّر : كل سلاح من حديد . والحمس : الشجعان . وهو يشير بذلك إلى ما بذله الفرس من جهد فى إقامة الدولة العباسية .

(٢) أرياط : قائد حبشى فتح اليمن . وقد أخرج اليمنيون الأحباش بمعونة الفرس . والكتائب : جمع كتيبة ، وهى : الفرقة من الجيش . والدعس : الدوس والطعن .

(٣) أكلف : أولع . والسنخ : الأصل والمنبت .

(٤) الميمون : اسم السفينة .

(٥) بعطفيه ، الضمير يعود على المركب . وعطفا الرجل : جانباه ، من لدن رأسه إلى ركبته . وعطف كل شىء : جانبه . وتشرف من أعلى الموضع : أشرف وعلا . والهادى : العنق .

(٦) الزمجرة : كثرة الصياح والصخب والصوت . النوتى : الملاح . والعلاة : الناقة المشرفة الجسيمة . وذؤابة كل شىء : أعلاه . والمعنى : إذا صاح النوتى فوق بنائه المتين المشرف بدا لك كأنه خطيب فوق أعلى المنبر .

(٧) عصفت الريح : اشتدت . والجنوب : ريح تقابل الشمال . والعقاب : طائر من الجوارح : والمهجر : السائر فى الحر الشديد .

إذا ما انكفا فى هَبْوَةِ الماء خِلْتَهُ ... تلفَّعَ فى أثناءِ بُرْدٍ مُحَبَّرِ (١)
وحولكَ رَكَّابونَ للهوْلِ ، عاقَروا ... كُئوسَ الرَّدى: من دارعينَ ،وحُسَّرِ (٢)
تَميلُ المَنايا حيثُ مالَتْ أَكُفُّهُمْ ... إذا أَصْلَتوا حدَّ الحديدِ المذكَّرِ (٣)
إذا رَشَقُوا بالنَّار لم يكُ رشقهمْ ... ليُقْلعَ إلَّا عن شِواءٍ مُقَتَّرِ (٤)
صَدَمْتَ بِهمْ صُهْبَ العَثَانِينِ دونهم ... بضربٍ كإيقادِ اللَّظَى المتَسَعِّرِ (٥)
يسوقُون أُسطولاً ، كأَنَّ سفينَه ... سحائبُ صيفٍ ،من جَهامٍ ومُمطِرِ (٦)
كأَن ضَجيجَ البحرِ بينَ رماحِهم ... إذا اختلَفَتْ ترجيعُ عَوْدٍ مُجَرْجِرِ (٧)
تُقاربُ من زحْفَيْهِمُ ، فكأَنَّما ... تؤلِّف من أَعناقِ وحْشٍ مُنَفَّرِ. (٨)
فما رِمْتَ ،حتى أَجْلَتِ الحربُ عن طُلًى ... مُقَطَّعةٍ فيهم ، وهامٍ مُطَيَّرِ (٩)

---

(١) انكفأ : انكب . وهبوة الماء : ما ارتفع ودقه من الماء ، كالملاءة عند هبوب الرياح ، وانكباب السفينة فى البحر . وتلفع بالثوب : تغطى به . والأثناء : الطيات . والبرد : الثوب المخطط . والمحبر : المزين الموشى .

(٢) الهول : الأمر المفزع العظيم . وعاقر الشىء : لازمه وأدمن عليه . والدارع : لابس الدرع . وحسر : جمع حاسر : من لا درع له ولا مغفر ، والمغفر : زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة .

(٣) أصلت السيف : جرده . والمذكر من السيوف : الصارم ذو الماء .

(٤) رشقوا بالنار : رموا بها . وأقلع عنه : كف عنه وتركه . والشواء : ما شوى من اللحم وغيره . والمقتر : من قتر اللحم : سطعت رائحته .

(٥) الصهب : جمع أصهب ، وهو : من فى شعره حمرة . والعثانين: جمع عثنون، وهو : اللحية . ويريد بصهب العثانين : الروم . واللظى : النار أو لهبها . والمشعر : المتقد المشتعل .

(٦) الجهام : السحاب لا ماء فيه . يشبه المراكب بالسحب فى السماء ، وهى فى حركتها فى القتال تتحرك كسحائب الصيف .

(٧) اختلفت الرماح : أقبلت ، وأدبرت . والترجيع : الترديد والتكرير . والعود : المسن من الإبل . وجرجر البعير : ردد الصوت فى حنجرته .

(٨) يصور حركة اقتراب الأسطولين .

(٩) رمت : فارقت المكان . وأجلى : كشف . والطلى : جمع طلية وهى: العنق .

على حينٍ لا نَقْعٌ تُطوِّحُه الصَّبَا ... ولا أَرَض تُلْفَى للصَّريعِ المقَطَّرِ (١)
وكنتَ ابنَ كسْرى ، قبلَ ذاكَ وبعده ... مليًّا بأَن تُوهِى صَفَاةَ ابن قيْصرِ (٢)
جَدَحْتَ له الموتَ الزُّعافَ ، فعافَه ... وطار على ألواح شَطْبٍ مُسَمَّرِ (٣)
مضَى ،وهو مَوْلى الرِّيحِ ،يشكرُ فضلَها ... عليه ، ومن يُولَ الصَّنيعةَ يَشْكُرِ (٤)
تعلَّق بالأَرضِ الكبيرةِ ، بعد ما ... تنقَّصهُ جرْىُ الرَّدَى المتمَطِّرِ (٥)

و ـ سيف :

قد جُدْتَ بالطِّرفِ الجَوادِ ، فَثَنِّهِ ... لأَخيكَ من أُدَدٍ أَبيك بمُنْصُلِ (٦)
يتنـاولُ الرُّوحَ البعيدَ مَنَالُهُ ... عفْوًا ،ويَفْتحُ فى القضاءِ المقْفَلِ (٧)
ماضٍ ، وإن لم تُمْضِهِ يَدُ فارسٍ ... بطَلٍ ، ومصقولٍ ، وإن لم يُصْقَلِ (٨)
يَغْشَى الوَغَى ، فالتُّرسُ ليس بِجُنَّةٍ ... من حدِّهِ ، والدِّرْعُ ليس بمَعْقِلِ (٩)

---

(١) النقع : الغبار . والصبا : ريح مهبها الشرق . وقطره : ألقاه على قطره أى جانبه وشقه .

(٢) كان قائد الأسطول فارسياً ، ولذا لقبه بابن كسرى . وتوهى : تضعف . والصفاة : الحجر الصلد الضخم . ويريد بابن قيصر هنا الروم ، أو أمير أسطولهم .

(٣) جدح السويق : لته ، يريد طبخت له وهيأت . والزعاف : الذى يقتل سريعاً . وعافه : كرهه . والشطب : الطويل الحسن . يصف المركب الذى فر عليه قائد أسطول الروم .

(٤) مولى : عبد . وأولاه صنيعة : قدم إليه إحساناً .

(٥) الأرض الكبيرة : الواسعة . أى أنه لجأ إلى الأرض الواسعة بعد أن ضاق البحر به ، هارباً أمام الموت . وتنقصه : أخذ منه قليلا . والردى : الهلاك . والمتمطر : المسرع الذى يعدو بسرعة .

(٦) الطرف : الكريم من الخيل . والمنصل : السيف . وثنه : أى اجعل السيف عطية ثانية ، بعد العطية الأولى ، وهى الجواد الكريم . وأدد : أحد أجداد الشاعر ، وأحد أجداد من يطلب الشاعر منه السيف .

(٧) عفواً : من غير طلب .

(٨) الماضى : القاطع . والمصقول : الناعم الأملس .

(٩) الوغى : الحرب . والترس : صفحة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف ونحوه . والجنة : كل ما وقى من السلاح . والدرع : قميص من زرد الحديد ، يلبس وقاية من سلاح العدو . والمعقل : الملجأ .

مُصْغٍ إلى حُكم الرَّدى ، فإذا مضى ... لم يلتَفِتْ ، وإذا قَضى لم يَعْدِل[١]
مُتألِّقٍ يَفرِى بأوَّل ضربةٍ ... ما أَدْرَكَتْ ، ولو انها فى يَذْبُلِ[٢]
وإذا أَصاب فكلُّ شَىْءٍ مقْتَلٌ ... وإذا أُصيبَ فما له من مَقْتَلِ
وكأنما سُودُ النِّمالِ وحُمرُها ... دبَّتْ بأيدٍ فى قَرَاهُ وأرجُـل[٣]
وكأَن شاهِرَهُ إذا استَعْصَى به ... فى الرَّوْعِ يعصى بالسِّماكِ الأَعزَلِ[٤]

ز ـ فى الشيب :

ناكَرَتْ لِمَّتِى ، وناكَرْتُ منها ... سوءَ هذى الأَخْلافِ والأَعْواض[٥]
شعراتٌ أَقصُّهنَّ ، ويرجِعْ ... نَ رجوعَ السِّهام فى الأَغراضِ[٦]
ورُوَاءُ المَشِيبِ كالنُّخْسِ فى عيـ ... ـنِى ، فقل فيه فى العيون المِرَاض[٧]

(١) لم يلتفت : لم يصرف وجهه عما أراد . ولم يعدل : لم يمل ولم يحد .
(٢) تألق : لمع . وفرى الشىء : قطعه ، وشقه . ويذبل : اسم جبل .
(٣) النمال : جمع نملة ، والقرا : الظهر .
(٤) شهر السيف : سله . واستعصى به : ضرب به . والروع : الفزع . ويعصى : يضرب . والسماك الأعزل : نجم نير .
(٥) ناكرت : عابت . واللمة : ما تشعث من الشعر . والشعر المجاوز شحمة الأذن . والأخلاف : جمع خلف ، وهو البدل . والأعواض جمع عوض .
(٦) الأغراض : الأهداف .
(٧) الرواء : حسن المنظر . والنخس : غرز الجنب بعود أو نحوه . والمراض : جمع مريضة ، وهى العين الفاترة . أى إذا كان جمال المشيب يؤذى عينى فما بالك به فى العيون الفاترة للغوانى .

٤ ـ الشاعر الغنائى

ا ـ فى الفخر :

طيئ

يفتخر البحترى فى قصيدة طويلة بقبيلة طيئ التى ينحدر منها ، وقد دار فخره بها حول صفات ، منها البأس وما يتبعه من شجاعة ونجدة ، والكرم ، وكثرة العديد ، ورجاحة الأحلام، والفصاحة ، ومن تلك القصيدة :

إن قومى قومُ الشَّريفِ قديماً   وحديثاً ، أبُوَّةً ، وجُـدُودا
ذهبتْ طيّئٌ بسـابقةِ المجـ   ـدِ على العالَمِينَ ، بأساً وجُودا
فإذا المحْلُ جاءَ جاءُوا سُيولاً   وإذا النقعُ ثارَ ثاروا أسودا(١)
يحْسُنُ الذِّكرُ عنهمُ والأَحادي   ـثُ ، إذا حدّث الحديدُ الحديدا
معْشَرٌ يُنْجِزُون بالخير والشَّـ   ـرِّ يَدَ الدهرِ ـ موعِدًا ووعيدا(٢)
يَفْرِجون الوَغَى ، إذا ما أثار الـ   ـضَّربُ من مُصْمَتِ الحديدِ صَعيدا(٣)
بوجوهٍ تُعْشِى السُّيوفَ ضِياءً   وسُيوفٍ تُعْشِى الوجوهَ وقُودا(٤)
عَدَلوا الهَضْبَ من تِهامَةَ أحلا   ماً ثقالا ، ورَملَ نجدٍ عديدا(٥)
ملكوا الأَرضَ قبل أن تُملَكَ الأَرْ   ضُ وقادوا فى حافتيهـا الجُنودا
سائل الدهرَ مُذْ عرفناه هل يعـ   ـرِفُ منّا إلا الفَعَالَ الحمِيدا

(١) المحل : الجدب . النقع : الغبار .
(٢) يد الدهر : مد زمانه .
(٣) فرج الشىء : وسعه . والوغى : الحرب ، والمصمت : الذى لا جوف له . والصعيد: التراب
(٤) تعشى : تفسد بصرها . والوقود : التلألؤ .
(٥) عدلوا : ساووا . والهضب : جمع هضبة ، وهى : الجبل المنبسط على وجه الأرض .

قد لَعَمْرى رُزناهُ كهلاً ، وشيخًا ورأيناه ناشئاً ، ووَليدا(١)
وطويْنا أيامَه ولياليـه على المكرُماتِ بيضاً ، وسُودا
لم نزَلْ قطُّ مذ ترعرعَ نكسوهُ ندًى ليِّناً ، وبأساً شديدا
فهْو من مجدِنا يروحُ ، ويغْدُو فى عُلاً لا تَبيدُ حتى يَبِيدا(٢)
نحن ، أبناءَ يَعْرُبٍ ، أَعربُ النَّاسِ لساناً ، وأنضرُ الناسِ عودا(٣)
وكأَنَّ الإلهَ قال لنا فى الحربِ : كونوا حِجارةً ، أو حديدا

نباهة الذكر

يفتخر الشاعر فى هذه القصيدة بمكانته التى نالها عند الخلفاء ، فنادمهم ، وسعد بالحياة فى ظلهم ، وقبلوا شفاعته ، وبمكانته عند العرب ، فقد أعان محتاجهم ، وفك أسيرهم :

أبُنَىَّ إنى قدْ نَضَوْتُ بَطَالَتِى فتحسّرتْ ، وصَحَوْتُ من سَكَرَاتِى(٤)
نظَرَتْ إلىَّ الأَربعونَ ، فأصرخَتْ شيْبِى ، وهزَّت للحُنوِّ قناتى(٥)
وأَرَى لِداتِ أَبى تتابَعَ كُثْرُهُمْ فمضَوْا ، وكرَّ الدّهرُ نحو لِداتى(٦)
ومن الأَقاربِ مَن يُسرُّ بميتَتى سفَهاً ، وعِزُّ حياتِهم بحياتى(٧)
إنْ أَبقَ أَو أَهْلَكْ ، فقد نلتُ التى ملأَتْ صُدورَ أَقاربى وعُداتى

(١) رزناه : جربناه .
(٢) تبيد : تفنى .
(٣) يعرب : جد عرب اليمن . وأنضر : أجمل .
(٤) نضوت : نزعت ، وخلعت . البطالة : الهزل . وتحسرت : انكشفت .
(٥) أصرخت : أعانت ، والحنو : الانحناء . ويريد بالقناة : القامة . يريد أن بلوغه الأربعين أعان الشيب على أن يعيث فى رأسه ، وأغرى قامته أن تنحنى .
(٦) اللدات : جمع لدة ، وهو : من ولد معك . والكثر : نقيض القل . وكر : انقض .
(٧) السفه : الجهل .

وغنِيتُ ندْمَانَ الخلائفِ نابِهًا ... ذِكرِى ، وناعمةً بهم نَشَوَاتى(١)

وشَفعْتُ فى الأَمرِ الجليل إليهمُ ... بعدَ الجليلِ ، فأَنجحُوا طَلَباتى

وصنعتُ فى العربِ الصنائعَ عندهم ... من رِفْدِ طُلّابٍ ، وفكِّ عُناة(٢)

فالآنَ إِذْ ناصَيتُ أَعنانَ العُلا ... ورَقِيتُ منها أَرفع الدَّرَجاتِ(٣)

يجرِى ، لِيَدْخُلَ فى غُبار تَسرُّعِى ... مَن ليس يَعشِر فى الرِّهانِ أَنَاتى(٤)

ويذيمُنِى مَن لو ضَغمتُ قبيلَهُ ... يوم الفَخارِ لطارَ فى لَهواتى(٥)

ب ـ فى العتاب :

عتاب الفتح

يعاتب البحترى بهذه القصيدة الفتح بن خاقان ، وقد تحدث فى أولها عن ألمه من الحياة بعد أن سخط عليه الفتح ، واستبعد أن يأخذه الفتح بأقوال الأعداء ونبهه إلى ما أنشأه من مدائح فيه ، وأكد له أنه لا يعرف ذنبا أساء به إليه ، وذكره بسابق الود الذى كان بينهما :

عَذِيرى من الأَيَّام ، رنَّقْنَ مشربى ... ولَقَّيْنَنى نَحساً من الطَّير أَشأَما(٦)

وأَكْسَبْنَنى سُخْطَ. امرئٍ بتُّ مُوهِناً ... أَرى سُخطَه ليلاً مع اللَّيلِ مُظلِما(٧)

---

(١) غنى : أقام . والنشوات : جمع نشوة ، وهى : السكرة ، ويريد بها الحياة السعيدة .

(٢) الصنائع : جمع صنيعة ، وهى : الإحسان . والرفد : العطاء ، والمعونة . والعناة : الأسرى .

(٣) ناصى الشىء الشىء : اتصل به . وأعنان العلا : أطرافها .

(٤) يعشر : يبلغ العشر . والرهان : السباق . والأناة : التأنى .

(٥) يذيمنى : يذمنى ، ويعيبنى . وضغمه : عضه بملء فه . واللهوات : جمع لهاة ، وهى : اللحمة فى أقصى سقف الحلق .

(٦) عذيرى من الأيام : أى أننى إذا لمت الأيام وشكوت منها وجدت من يعذرنى فى ذلك . ورنقن : كدرن . ولقيننى . . . إلخ يريد : وجعلنى متشائماً . وكان العرب يتفاءلون بالطير إن مر عن أيمانهم ، ويتشاءمون إن مرعن يسارهم .

(٧) الموهن : من دخل فى الوهن من الليل ، والوهن : نحو منتصف الليل .

تبلَّجَ عن بعضِ الرِّضا ،وانطوى على ... بقيّةِ عتْبٍ شارفَتْ أَن تصرَّما(١)
وأَصْيدَ إِن نازعتُه اللَّحظَ ردّه ... كليلاً ،وإن راجَعْتُه القولَ جَمجَما(٢)
ثنَاه العِدَا عنِّى ، فأَصحبَ مُسرعاً ... وأَوهَمَهُ الواشون ، حتى توهَّما(٣)
وقد كان سهلاً واضحاً ، فتوعَّرت ... رُباهُ ، وطَلْقاً ضاحكاً ، فتجهَّما(٤)
أَمُتَّخِذٌ عندى الإِساءَةَ مُحْسنٌ ... ومنتقمٌ منِّى امرؤٌ كان مُنعِما
ومكتسبٌ فىَّ الملامَةَ ماجِدٌ ... يرَى الحمدَ غُنماً ، والملامةَ مَغْرَمَا(٥)
يُخوِّفُنى من سوءِ رأْيِكَ مَعشرٌ ... ولا خَوْفَ إِلَّا أَن تجورَ ، وتظلِمَا
أُعيذُك أَن أَخْشاكَ من غيرِ حادثٍ ... تبيَّنَ ، أَو جُرْمٍ إِليكَ تقدَّما(٦)
أَلَسْتُ المُوَالِى فيكَ غُرَّ قصائدٍ ... هى الأَنجمُ اقتادتْ مع الليلِ أَنجُمَا(٧)
ولو أَنَّنى وقَّرْتُ شعرى وقَارَهُ ... وأَجللتُ مدحى فيك أَن يُتَهضَّما(٨)
لأَكْبرْتُ أَن أُومِى إِليكَ بإِصبَعٍ ... تضَرُّعُ ، أَو أُدْنِى لمَعذِرةٍ فما(٩)
وكان الذى يأْتِى به الدهرُ هيِّناً ... علىَّ ، ولو كان الحِمامُ المقدَّما

---

(١) تبلج : أشرق ، وأضاء . وانطوى على : أخفى . وشارفت : قاربت وتصرم : أى تتصرم : تنقضى .

(٢) الأصيد : من يرفع رأسه كبراً . ونازعته اللحظ : جاذبته . والكليل : الضعيف . وجمجم الكلام : لم يبينه .

(٣) ثناه : صرفه . وأصحب : انقاد .

(٤) توعر : صعب وتعسر . وتجهم : عبس .

(٥) الملامة : اللوم . والماجد : العزيز الرفيع . والغنم : الفوز . والمغرم : ما يعطى من المال على كره .

(٦) الجرم : الذنب .

(٧) الغر : المشهورة .

(٨) تهضمه : ظلمه ، وأذله .

(٩) أومأ : أشار . وتضرع : أى تتضرع : تخضع ، وتذل .

ولكنّى أُعْلى محلَّكَ أَنْ أُرَى ... مُدِلاًّ ، وأَستحيِيك أن أتعظَّما(١)
أَعِدْ نظرًا فيما تَسَخَّطْتَ ، هل تَرَى ... مقَالاً دنيئاً ، أَو فَعالاً مُذَمَّما(٢)
رأَيتُ العراقَ ناكَرَتْني ، وأَقْسَمَتْ ... علىَّ صروفُ الدهرِ أَن أَتَشَأَّما(٣)
وكان رجائى أَن أَءُوبَ مُملَّكاً ... فصار رجائى أَن أَءُوبَ مسلَّما
وما مانعٌ ممَّا توهَّمْتُ غيرَ أَنْ ... تذَكَّرَ بعضَ الأُنس أَو تتذمَّما(٤)
وأَكبرُ ظنِّى أَنكَ المرءُ لم تكنْ ... تُحلِّلُ بالسِّنِّ الذِّمامَ المُحَرَّما(٥)
ولم أَعرف الذَّنْبَ الذى سُؤْتَنى له ... فأَقْتُلَ نفسى حَسرةً وتندُّما
ولو كان ما خُبِّرْتَهُ أَو ظَنَنْتَهُ ... لما كان غَرْوًا أَن أَلُومَ ، وتَكرُمَا(٦)
أُذكِّرُك العهدَ الذى ليسَ سُؤْدُدًا ... تَنَاسِيه ، والوُدَّ الصّحيحَ المسلَّما
وما حملَ الرّكبانُ شرقاً ومغرباً ... وأَنجدَ فى أَعلى البلادِ ، وأَتهمَا(٧)
أُقِرُّ بما لَمْ أَجْنِه ، متنصِّلاً ... إِليكَ ، على أَنِّى إِخالك أَلْوَمَا(٨)
لىَ الذَّنْبُ معروفاً ،وإِن كنتُ جاهلاً ... به ، ولك العُتْبَى علىّ ، وأَنْعمَا(٩)

---

(١) أدل : وثق بمحبته فأفرط عليه .

(٢) تسخطه : تغضب عليه وتكرهه .

(٣) صروف الدهر : نوائبه . وأتشأم : أسير إلى الشام .

(٤) تذكر : تتذكر . وتذمم : تجنب ما يذم عليه .

(٥) الذمام : الحق والحرمة .

(٦) لما كان غزواً : لما كان عجباً . وألوم : ألؤم .

(٧) أنجد : أتى نجداً . وأتهم : نزل تهامة .

(٨) تنصل من الجناية : تبرأ منها . وألوم : أحق بأن تلام .

(٩) العتبى : الرضا . وأنعما : يريد وأنعمن ، بنون التوكيد الخفيفة .

جـ – فى الغزل :

أكثر ما للبحترى من غزل هو ما جعله مقدمة لأغراضه الأخرى فى الشعر ، حيث حدثنا عن كثير من عواطف الحب ، فى القرب والبعد ، والرضا والسخط ، فن ذلك :

جمال الحبيبة

فهو عندما يتحدث عما فى قلبه من الحب ، يصف جمال من يحب ، والحبيبة فى القصيدة بيضاء ، مرهفة القد ، تمشى فى دلال ، وتميل من اللين ، وردية الخد ، ساحرة العين :

أُخْفِى هوًى لكِ فى الضُّلُوعِ ، وأُظْهِرُ ... وأُلامُ فى كَمَدٍ عليكِ ، وأُعْذَرُ (١)

وأَراكِ خُنْتِ على النَّوى مَن لم يَخُنْ ... عهدَ الهوَى، وهجرتِ مَن لا يهجُرُ (٢)

وطلبتُ منكِ مودّةً لم أُعْطَها ... إنَّ المُعَنَّى طالبٌ لا يظفرُ (٣)

هل دَيْنُ «عَلْوَةَ» يُسْتطَاعُ ، فيُقْتَضَى ... أَوْ ظُلْمُ «عَلْوةَ» يَسْتَفِيقُ ، فيُقْصِرُ (٤)

بيضاءُ ، يُعطيكَ القضيبُ قوامَها ... ويُريكَ عَيْنَيها الغزالُ الأَحْوَرُ (٥)

تمشى ، فتحكُمُ فى القُلُوبِ بدَلِّها ... وتميسُ فى ظلِّ الشباب وتخطُرُ (٦)

وتميلُ من لِين الصِّبا ، فيُقيمُها ... قَدٌّ يؤنَّثُ تارةً ، ويُذَكَّرُ (٧)

---

(١) الكمد : المرض والغم .

(٢) النوى : البعد .

(٣) المعنى : المكلف ما يشق عليه .

(٤) اقتضى الدين : طلبه وأخذه . ويستفيق : يصحو ، وأقصر عن الأمر : أمسك عنه مع القدرة عليه .

(٥) حورت العين : اشتد بياض بياضها وسواد سوادها .

(٦) الدل : التلوى . وتميس : تمشى وهى تتمايل وتتبختر .

(٧) قد يؤنث . . . أى يتلوى مرة ويعتدل مرة أخرى .

إنى وإن جانَبْتُ بعض بَطالَتى ... وتَوَهَّم الواشون أنِّىَ مُقصِر(١)
لَيَشُوقُنى سِحْرُ العيُون المُجْتَلى ... ويروقُنى وردُ الخدودِ الأَحمرُ(٢)

ويراها أعطيت من الجمال ما لم يعطه الناس :

أُعْطِيتْ بَسْطَةً على النَّاس حتى ... هى صِنْفٌ فى الحسن والنَّاسُ صِنْفُ(٣)
اعتدالٌ يُميلُ منـــه انخِناثٌ ... وتَثَنٍّ فيه الفخامةُ لُطْفُ(٤)

بل يرى الحبيبة أجمل ما فى الوجود ، وهو لذلك يحبها حباً تجدده الليالى :

شوقٌ إليكِ تَفيضُ منه الأَدْمُعُ ... وجَوًى عليكِ تَضيقُ عنه الأَضْلُعُ(٥)
وهَوًى تُجدِّده اللَّيـــالى كُلَّما ... قَدُمَتْ وتُرْجِعُه السِّنُونَ ، فيرجِع
إنى وما قصدَ الحجيجُ ، ودُونهم ... خَرْقٌ تَخُبُّ به الرِّكابُ وتوضِعُ(٦)
أُصْفِيكِ أَقصى الوُدِّ غيرَ مُقلِّلٍ ... إن كان أَقْصى الوُدِّ عِندكِ يَنْفَعُ(٧)
وأَرَاكِ أَحسَنَ مَنْ أَرَاهُ وإن بَدَا ... منكِ الصّدودُ ، وبان وصْلُكِ أَجمعُ(٨)
يعتادُنى طربى إليكِ ، فيغْتَـــلى ... وجدى ، ويدعونى هواكِ ، فأَتبَعُ(٩)
كلِفاً بحبِّك مُولَعاً ، ويسرُّنى ... أَنِّى امرؤٌ كلِفٌ بحبِّكِ مولَعُ(١٠)

---

(١) البطالة : الهزل . ومقصر : ممسك عن اللهو .
(٢) يشوقنى : يهيجنى .
(٣) البسطة : الكمال .
(٤) الانخناث : البسطة والتثنى .
(٥) الجوى : شدة الوجد من العشق .
(٦) الخرق : القفر . والخبب نوع من عدو الدابة . والركاب : الإبل . وتوضع : تسرع .
(٧) أصفى فلاناً الود : أخلصه له .
(٨) بان : انقطع .
(٩) الطرب : الشوق . ويغتلى : يسرع .
(١٠) الكلف : المحب حبا شديداً .

فراق وذكرى

يصف الشاعر موقف وداع لمن يحب ، انهملت فيه الدموع ، ولم يشفه اللقاء السريع . ومضى الشاعر مفارقاً يذكر من يهوى كلما رأى مشابه من حبيبه ، الذى لا يقبل فى حبه لوماً :

أَكُنتَ مُعَنِّفِى يومَ الرَّحيلِ ... وقد لجَّتْ دُمُوعى فى الهُمُولِ (١)

عشيّةَ لا الفراقُ أفاءَ عَزْمِى ... إلىَّ ، ولا اللِّقاءُ شَفَى غليلى (٢)

دَنَتْ عند الوَدَاعِ لوَشْكِ بُعْدٍ ... دُنُوَّ الشَّمْسِ تَجْنَحُ للأَصِيل (٣)

وصدَّتْ ،لا الوصالُ لها بقَصْدٍ ... ولا الإسعافُ منها بالمَخيل (٤)

تُلِيمُ إساءَةً ، وأُلامُ حُبًّا ... وبعضُ اللَّوْمِ يُغْرِى بالخليل (٥)

طَرِبْتُ بذى الأَراكِ ، وشوَّقتْنى ... طوالِعُ من سَنَا برق كَليلِ (٦)

وذكَّرَنيكِ ، والذِّكرى عَنَاءٌ ... مَشابهُ فِيكِ بيِّنةُ الشُّكول (٧) :

نسيمُ الرَّوض فى ريحِ شمالٍ ... وصَوْبُ المُزْنِ فى راحٍ شَمُول (٨)

عذيرى من عَذُولٍ فيكِ يلحَى ... عَلَىَّ ، أَلاَ عَذِيرٌ من عَذُول (٩)

---

(١) عنفه : لامه بشدة . ولج فى الأمر : لازمه ، وأبى أن ينصرف عنه ، والهمول : فيضان الدموع .

(٢) العشية : أول الظلام . وأفاء : أرجع . والغليل : العطش الشديد .

(٣) الوشك : السرعة . ووشك بعد : بعد سريع . وجنح إليه : مال . والأصيل : الوقت بين العصر والمغرب .

(٤) أسعفه بحاجته : قضاها له . والمخيل : المظنون .

(٥) تليم إساءة : تفعل ما تستحق عليه اللوم من الإساءة . ويغرى : يحض .

(٦) طرب : اهتز فرحاً أو حزناً ، وذو الأراك : موضع . والسنا : الضوء . والكليل : الضعيف .

(٧) الشكول : جمع شكل ، وهو : الشبه والنظير .

(٨) صوب المزن : انصباب المطر . والشمول : الباردة من الخمر .

(٩) يلحى : يلوم . وعذيرى من عذول : أى من يقدم عذرى لعذول يلومنى على حبك .

تجرَّمت السِّنُونَ ، ولا سبيلٌ إليكِ ،وأنتِ واضِحَةُ السَّبيل (١)
وقد حاولتُ أَن تخِدَ المطايا إلى حيٍّ على حَلَبٍ حُلُول (٢)
ولو أَنِّى ملكتُ إليكِ عزمِى وَصَلْتُ النَّصَّ منها بالذَّميل (٣)

حبيبة بالشام

يصور الشاعر لنفسه جمال حبيبته ويؤكد اتجاه قلبه الدائم إلى من يحبه بالشام ، برغم ما بينهما من القفار الشاسعة :

أَلَمْعُ برقٍ سَرَى؟ أَم ضوءُ مِصْبَاحِ؟ أَم ابتسامتُها بالمنظَرِ الضَّاحى؟ (٤)
يا بُؤْسَ نفسٍ عليها جدَّ آسِفَةٍ وشَجْوَ قَلبٍ إليها جدَّ مُرْتَاحِ (٥)
تَهْتَزُّ مثلَ اهْتزَازِ الْغُصْنِ أَتْعَبَهُ مرورُ غيثٍ من الوسمىِّ سَحَّاحِ (٦)
ويرجعُ اللَّيلُ مبيضًّا إذا ابتَسَمَتْ عن أَبيضٍ خَصِرِ السِّمْطَين لمَّاحِ (٧)
وجدتِ نفسَكِ من نفسِى بمنزِلةٍ هى المُصافاةُ بين الماءِ والرَّاح (٨)
أُثْنى عليكِ بأَنِّى لم أَجدْ أَحدًا يلحَى عليكِ ،وماذا يزعُمُ اللاَّحى (٩)

---

(١) تجرمت : انقضت .

(٢) تخد : تسرع . والمطايا : الدواب التى تركب . وحلول : جميع حال : مقيم بالمكان .

(٣) النص : استحثاث الناقة استحثاثاً شديداً . والذميل : السير اللين .

(٤) سرى : مشى ليلا . والضاحى : المنكشف . يريد ابتسامتها وهى سافرة . وهذا النوع من الاستفهام يدعى فى البديع بتجاهل العارف .

(٥) جد منصوبة على المصدرية ، ويراد بها المبالغة . والشجو : الحزن . ومرتاح : نشيط إلى تذكرها .

(٦) الغيث : المطر . والوسمى: أول مطر الربيع . والسحاح : المنصب انصباباً متتابعاً غزيراً.

(٧) أبيض : صفة لثغر محذوف . والخصر : البارد . والسمطين : صفى أسنانها . ولماح : لامع.

(٨) المصافاة : خلوص الود .

(٩) يلحى : يلوم . والاستفهام فى : وماذا يزعم اللاحى للإنكار .

وليلةَ القصر ، والصَّهْبَاءُ ناصِرَةٌ ... لِلَّهْو بين أَباريقٍ وأَقداحِ[1]

أَرسلتِ شُغْلَيْن: من لفظٍ محاسنُه ... تُدْوِى الصَّحيحَ ولفظٍ يُسْكِرُ الصَّاحى[2]

حيَّيْتُ خدَّيكِ ،بل حيَّيْتُ من طَرَبٍ ... وردًا بوَرْدٍ ، وتفَّاحاً بتُفَّاحِ

كم نظرةٍ لى حِيالَ الشَّامِ ، لو وصلت ... رَوَتْ غَليلَ فؤادٍ منكِ مُلْتَاحِ[3]

والعِيسُ ترمِى بأَيديها على عَجَلٍ ... فى مَهْمَهٍ مثل ظَهْر التُّرْسِ رَحْرَاحِ[4]

جديرة بالحب

يرى الشاعر أنه ليس من العدل أن يلام فى حب « علوة » ، فيستعطفها ، ويرسل إليها سلامه ، ويؤكد لها حرصه على ودها برغم تنائى الديار :

عَذِيرى فيكِ من لاحٍ ، إذا ما ... شكوتُ الحُبَّ حرَّقَنى مَلاَمَا[5]

فلا وأَبيكِ ، ما ضيَّعْتُ حِلْماً ... ولا قَارَفْتُ فى حُبِّيكِ ذاما[6]

أُلاَمُ على هواكِ ، وليس عَدْلاً ... إذا أَحبَبْتُ مِثْلَكِ أَن أُلاَما

لقدْ حرَّمْتِ من وصلى حَلالاً ... وقد حلَّلتِ من هجرى حَرامَا[7]

أَعيدِى فىَّ نظرةَ مُسْتَثِيبٍ ... توخَّى الأَجْرَ ، أَو كرهَ الأَثاما[8]

---

(١) الصهباء : الخمر . والأقداح : جمع قدح ، وهو إناء يشرب فيه .

(٢) أدوى : أمرض .

(٣) حيال الشام : قبالتها وإزاءها . والغليل : العطش . وملتاح : عطشان .

(٤) العيس: الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف . والمهمه : المفازة البعيدة . والترس : صفحة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف ونحوه . والرحراح : الواسع .

(٥) اللاحى : اللائم . وحرقنى : أحرقنى .

(٦) الحلم : الصبر والأناة . وقارف الذنب : داناه . والذام : العيب .

(٧) فى هذا البيت طباق بين الوصل والهجر ، والحلال والحرام .

(٨) المستثيب : طالب الثواب . وتوخى الأمر : تطلبه دون سواه . والأثام : الإثم .

تَرَىْ كبــدًا محرَّقةً ، وعيناً مــؤرّقة ، وقلباً مُسْتَهَامَا(١)
تناءَت دارُ «عَلْوَةَ» بعد قُرْبٍ فهل رَكْبٌ يُبلِّغُها السلاَمَا
وجــدَّد طيفُها عَتْباً علينا فمــا يعتادُنا إلَّا لِمَــامَا(٢)
وقد علمتْ بأَنِّى لم أُضيِّعْ لها عهدًا ، ولم أَخْفِرْ ذِمَاما(٣)
لئنْ أَضْحَتْ مَحَلَّتُنَــا عِرَاقاً مشرِّقةً ، وحِلَّتُهــا شآما(٤)
فلم أُحْدِثْ لها إلَّا وِدَادًا ولم أَزْدَدْ بهــا إلَّا غَرَامَا

طيف الحبيب

تحدث البحترى كثيراً عن الطيف ، وهو فى هذه القطعة يشبهه بالنسيم يهب من ناحية الروض ، ويصف فرحه بمقدمه ، ولكنه يعود فيراه لم يطْوِ غلته ، فيدفعه ذلك إلى الشكوى من الحبيب ، كما قال :

أَجدَّكَ ما ينفكُّ يَسرى لزَينَبَا خَيَالٌ إذا آب الظَّلامُ تأَوَّبَا(٥)
سَرَى من أَعَالى الشَّام يَجلُبُهُ الكَرَى هُبوبَ نسيمِ الرَّوض تجلُبهُ الصَّبا(٦)
وما زارَنى إلَّا وَلِهْتُ صَبَابَةً إليه ، وإلَّا قُلتُ : أَهلاً ، ومرحبَا(٧)
وليْلَتَنا بالجزْعِ بات مُسَاعِفاً يُرينى أَناةَ الخطو ناعِمَةَ الصِّبا(٨)

(١) استهيم الرجل : ذهب فؤاده ، وخلب عقله من الحب .
(٢) يعتادنا لماماً : يزورنا غباً .
(٣) لم أخفر ذماماً : لم أنقض عهداً .
(٤) المحلة : الحلة : مكان الحلول والنزول .
(٥) آب : رجع . وتأوب : ورد ليلا .
(٦) الكرى : النوم . والصبا : ريح مهبها من الشرق .
(٧) ولهت : تحيرت من شدة الوجد .
(٨) الجزع : موضع . والمساعف : المساعد . وأناة الخطو : المرأة فيها فتور عند المشى .

أضرَّتْ بضوءِ البدرِ ، والبدرُ طالعٌ وقامتْ مقامَ البدرِ ، لَمَّا تغيَّبا

ولو كان حقًّا ما أَتَتْهُ لأطفأَتْ غليلًا ، ولافتكَّتْ أسيرًا مُعذَّبا(١)

علمتُكِ إن مَنَّيْتِ مَنَّيْتِ موعـدًا جَهَاماً ، وإن أَبرقْتِ أبرقتِ خُلَّبَا(٢)

فواأَسفى ، حتَّامَ أَسأَلُ مانعاً وآمَنُ خوَّاناً ، وأُعتِبُ مذنبا(٣)

ويراه مرة أخرى سبباً لتجديد اللقاء والفراق ، وما يصحبهما من سرور وأسى ، إذ يقول :

سُقيتِ الغَوادِى من طُلولٍ وأَرْبُعٍ وحُيِّيتِ من دارٍ لأَسماءَ بَلْقَعِ(٤)

وإن كنتُ لا موعودُ أَسماءَ راجِعِى بنُجْحٍ ، ولا تسويفُ أَسماءَ مُقْنِعى(٥)

ولا نافعٌ سَكْبُ الدُّموعِ التى جَرَتْ عليها ، ولا فَرْطُ الحَنينِ المرجَّعِ(٦)

فلا وَصلَ إلَّا أن يُطيفَ خيالُها بنا تحتَ جُؤْشوشٍ من الليلِ أسفعِ(٧)

أَلمَّتْ بنا بعد الهدوءِ ، فسامَحَتْ بوَصلٍ متى نَطلُبهُ فى الجِدِّ تمنعِ(٨)

وما بَرِحَتْ حتى مَضَى اللَّيلُ ، فانقضَى وأَعجَلَها داعى الصباحِ المُلَمَّعِ(٩)

فولَّتْ كأَنَّ البَيْنَ يَخْلِجُ شخصَها أَوَانَ تولَّتْ من حَشاىَ وأَضلُعى(١٠)

---

(١) الغليل : العطش الشديد . وافتكت : خلصت .

(٢) الجهام : السحاب لا ماء فيه . والبرق الخلب : الذى يكون فى سحاب لا مطر فيه .

(٣) أعتبه : أرضاه ، وأزال عتبه .

(٤) الطلول : جمع طلل ، وهو ما شخص من آثار الديار . والأربع : جمع ربع ، وهو : الدار . والبلقع : الأرض القفر .

(٥) التسويف : المطل .

(٦) رجع فى صوته : ردد ، وكرر .

(٧) الجؤشوش : القطعة من الليل ، والأسفع : الأسود .

(٨) سامح بكذا : تساهل فيه .

(٩) برح المكان : زال عنه . والململع : ذو الألوان المختلفة ، وذلك لاختلاط الظلام بالضوء ونور الشمس .

(١٠) يخلج شخصها : يجعلها تضطرب ، وتتحرك ، وتمايل .

أَرانىَ لا أَنفكُّ فى كلِّ ليْلةٍ ... تُعاوِدُ فيها المالِكيَّةُ مَضْجَعى[١]

أُسَرُّ بقُرْبٍ من مُلِمٍّ مُسَلِّمٍ ... وأَشْجَى ببَيْنٍ من حبيبٍ مودِّعِ[٢]

وكائِنْ لنا بعد النَّوَى من تَفَرُّقٍ ... تُزَجِّيه أَحلامُ الكَرَى ، وتَجَمُّعِ[٣]

ومن لَوْعةٍ تعتادُ فى إِثْر لَوْعــةٍ ... ومن أَدمُعٍ ترفَضُّ فى إِثْر أَدْمُعِ[٤]

ومرة يسعد بالطيف ، ولكنه يذكره بالحبيب النائى ؛ فيعاهد نفسه على أن يجعل هذا النأى المؤقت وسيلة لقربه من الحبيب قرباً دائماً ، إذ يقول :

أَجِرْنى من الواشى الذى جارَ ، واعتَدَى ... وغابِرِ حبٍّ غارَ بى ثمَّ أَنْجَدَا[٥]

وإِلَّا فأَسعِدْنى بدمعِكَ ، إنهُ ... يُهَوِّن ما بى أَن أَرَى لىَ مسْعِدا[٦]

سقى الغيثُ أَجزاعاً عهِدْتُ بجوِّها ... غزالاً تُرَاعِيه الجآذِرُ أَغْيَدَا[٧]

إِذا ما الكَرَى أَهْدَى إِلَىَّ خيالَهُ ... شَفَى قُرْبُهُ التَّبريحَ ، أَونَقَعَ الصَّدَى[٨]

إِذا انتزعتْهُ من يَدَىَّ انِتباهَةٌ ... عَدَدْتُ حبيباً راح منِّىَ أَو غدا

ولم أَرَ مثْلَيْنا ، ولا مِثلَ شأْنِنا ... نُعَذَّبُ أَيقاظاً ، ونَنعَمُ هُجَّدا[٩]

---

(١) المالكية : من يتغزل فيها .

(٢) الملم : النازل بالقوم . وشجى يشجى : حزن . والبين : الفراق .

(٣) وكائن لنا : وكم لنا . والنوى : البعد . وتزجيه : تسوقه وتدفعه .

(٤) اللوعة : حرقة الهوى . وترفض : تسيل .

(٥) الغابر : الباقى ، والماضى . وغار : أتى الغور ، وهو ما انحدر من الأرض ، وأنجد : أتى نجداً ، والمراد أن حبه ذهب به كل مذهب .

(٦) أسعدنى : عادنى .

(٧) الأجزاع : جمع جزع وهو : محلة القوم . وراعاه : التفت إليه . والجآذر : جمع جؤذر ، وهو : ولد البقرة الوحشية ، ويشبه الشعراء الحسناء به لجمال عينيه . والأغيد : مائل العنق (كبراً) ، ولين الأعطاف .

(٨) التبريح : الشدة . ونقع الصدى : سكن العطش وقطعه .

(٩) الهجد : جمع هاجد ، وهو النائم .

تَصَعَّدُ أَنفاسى جَوًى وتَشَوُّقاً ... إذا البرقُ من غربىِّ دِجْلَةَ أصعدا[١]

وما ذاكَ إِلَّا لوْعةٌ لكَ زادها ... تَنائِى الديار جِدَّةً ، وتوقُّدَا

فمن غاب يَنْوى نِيَّةً عن حبيبِه ... وهجرًا ، فإنِّى غِبْتُ عنكَ لأَشهدا[٢]

٥ ـ الشاعر الحكيم

لم يشتهر البحترى بالحكمة ، ولكن كان له فيها بعض نظرات نثرها فى قصائده ، وكان الظرف الذى أنشئت فيه القصيدة يستدعيها :

فضل الفتى

لا يرى البحترى فى إعجاب المرء بنفسه ، ولا فى نظافة ثوبه ، وما يركبه فضلا ، ولكن فى أفعاله الكريمة :

أَبا جعفرٍ ، ليسَ فضلُ الفتَى ... إذا راحَ فى فَرْطِ إعجابِهِ

ولا فى فَرَاهَةِ بِرْذَوْنِه ... ولا فى نظـافَةِ أَثْوَابِه[٣]

ولكنَّهُ فى الفَعَال الكريـ ... ـم ، والخَطَر الأَشرفِ النَّابِهِ[٤]

كما لا يراه فى حسب[٥] يفتخر به صاحبه ، حتى يكون فعله موافقاً هذا الحسب :

لا أَحْفِلُ المرءَ ، أَو تُقَدِّمُهُ ... شَتَّى خِلالٍ أَشَفُّها أَدَبُه[٦]

ولَسْتُ أَعتدُّ للفتى حسباً ... حتَّى يُرَى فى فَعَاله حَسَبُه

---

(١) تصعد : تتصعد .

(٢) ينوى نية ، يريد نية قذفاً ، أى رحلته بعيدة . فإنه غبت عنك لأشهدا : يشير إلى قول الشاعر : « سأطلب بعد الدار عنكم ، لتقربوا » ، أى أنه غاب ليحقق آماله فى الثروة والجاه مما يهيئ له العودة إلى من يحب ، والحياة بجواره حياة هانئة سعيدة .

(٣) فراهة البرذون : حذقه فى المشى . والبرذون : الفرس .

(٤) النابه : الرفيع .

(٥) الحسب : ما يعترض مفاخر الآباء .

(٦) حفل به : بالى به واهتم له . وأشفها : أظهرها .

عدل الصّديق

لا يريد البحترى من صديقه سوى العدل فى المعاملة :

شَرْطِيَ الإنصافُ ،إن قيل : اشترِط وصَديقى مَنْ إذا صَافَى قَسَطْ.(١)
أَدَعُ الفَضْلَ ، فلا أَطْلُبه حسبِيَ العدلُ من الناس فقطْ.(٢)

الرِّحلة للرِّزق

لا يرى البحترى البقاء فى بلد لا يظفر فيه المرء بآماله ، بل يدعوه إلى الرحلة فى الشرق والغرب ؛ لأن نيل الآمال فى الرحلة والانتقال ؛ فلا يقل إنسان : كيف أنتقل بين أمم شتى ؛ فالأرض متشابهة الأجزاء ، والناس متشابهون فى العادات :

شَرِّقْ ؛ وغرِّبْ ؛ فعهدُ العاهِدِين بما طَلَبْتَ فى ذَمَلانِ الأَينُقِ الذُّلُلِ(٣)
ولا تقُل : أُمَمٌ شتَّى ، ولا فِرَقٌ فالأَرضُ من تُرْبةٍ ، والناسُ من رَجُل

خفِّض همومك

راحة المرء فى تصغير الهموم ، أما هؤلاء الذين يكبرونها ، فإنهم يزيدون الحياة شقاء :

خفِّضْ عليكَ من الهُمُوم ، فإنَّما يَحْظَى براحةِ دهره من خَفَّضَا
وارفُضْ دنيَّاتِ المطامعِ ، إنَّها شَيْنٌ يَعُرُّ ، وحقُّها أن تُرْفَضا(٤)

---

(١) قسط : عدل .
(٢) الفضل : الزيادة .
(٣) الذملان : السير اللين . والأينق: جمع ناقة . والذلل : جمع ذلول، وهو : سهل القياد .
(٤) دنيات : خسيسات . والشين : العيب .

القلب الشّجاع

ينسب الشاعر إلى القلب أكبر الأثر فى الإقدام ، أما وسائل القتال فقليلة الغناء من غير قلب جرىء :

يُقِلُّ غَنَاءَ القوسِ نَبْعُ نجارِهَا وساعدُ مَنَ يرمى عن القَوْسِ خِرْوَعُ (١)
فَلا تُغْلِينْ بالسَّيْفِ كلَّ غَلائِه ليَمْضِى ، فإنَّ القلبَ لا السَّيْفَ يَقْطَع (٢)

وليس السيف من غير قلب سوى زينة لا تنفع :

وما السّيفُ إلاَّ بَزٌّ غادٍ لِزينةٍ إذا لم يكُنْ أَمْضى من السّيفِ حامِلُه (٣)

الوفاء والحلم

إذا كان الشاعر قديراً على إيذاء عدوه فهو وفى لأصدقائه ، يحفظ ودهم إذا غابوا . وهو حليم لا يغضب ما دام واجداً فى الحلم ما يغنيه عن الغضب :

إنِّى وإن كنت مرهوباً لعاديةٍ أرمى عدُوِّى بها فى الفرطِ والحين (٤)
لَذُو وفاءٍ لأَهل الوُدِّ مُدَّخَرٍ عندى وغَيْبٍ على الإخوان مأْمونِ
لستُ مُنْبرِياً بالجهل أَجْعَلُهُ صناعةً ما وجدتُ الحِلْمَ يكْفِينى

---

(١) الغناء : الاكتفاء والجدوى . والنبع : شجر يتخذ منه القسى . والنجار : الأصل . والخروع : نبت ضعيف .

(٢) يغلى : يجعله غالياً .

(٣) البز : الثياب .

(٤) العادية : من عدى عليه : ظلمه . والفرط : الحين . أى أرمى بها عدوى عندما أريد ذلك .

المراجع

أحمد الإسكندرى	تاريخ اللغة والآداب فى العصر العباسى
أحمد بن عبدالله : (أبو العلاء المعرى)	عبث الوليد .
أحمد بن علىّ : (الخطيب البغدادى)	تاريخ بغداد .
أحمد بن محمد بن خلكان	وفيات الأعيان ج ٢ .
أحمد بن محمد بن عبد ربه	العقد الفريد ج ٣ .
إسحق كنعان	البحترى : درس ، وتحليل .
الأشناندانى	معانى الشعر .
حبيب بن أوس : (أبو تمّام)	ديوان الحماسة .
الحسن بن بشر الآمدىّ	الموازنة بين أبى تمام والبحترى .
الحسن بن رشيق القيروانىّ	العمدة فى صناعة الشعر ونقده .
السباعى السباعى بيّومى	تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى .
طه حسين (الدكتور)	من حديث الشعر والنثر .
عبد السلام رستم	طيف الوليد .
عبد العزيز سيد الأهل	عبقرية البحترى .
عبد القادر الجرجانى	المختار من شعر المتنبى والبحترى وأبى تمام .
عبد الله بن مسلم بن قتيبة	أدب الكاتب .
	الشعر والشعراء .
على بن حسين المسعودى	مروج الذهب ج ٣ .
علىّ بن العباس : (ابن الرومى)	ديوان ابن الرومى .
علىّ بن عبد العزيز الجرجانى	الوساطة بين المتنبى وخصومه .
على بن عبد الغنى الحصرى	زهر الآداب .
على بن محمد بن الأثير	الكامل فى التاريخ .

على بن محمد : (القاضى التنوخى) : نشوار المحاضرة .

أبو الفرج الأصبهانى : الأغانى جـ ١٨ .

محمد بن إسحق النديم : الفهرست .

محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الأمم والملوك .

محمد الخضرى : تاريخ الدولة العباسية .

محمد بن سلام : طبقات الشعراء .

محمد صبرى (الدكتور) : الشوامخ : البحترى .

محمد بن عمران المرزبانى : الموشح .

محمد بن يحيى الصولى : أخبار أبى تمام .

محمد بن يزيد المبرد : الكامل .

محمود مصطفى : الأدب العربى وتاريخه فى العصر العباسى .

نصر الله بن محمد بن الأثير : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر .

الوليد بن عبيد (البحترى) : حماسة البحترى .

ديوان البحترى .

ياقوت الرومى : معجم الأدباء .

فهرست

الفصل الأول

عصر البحترى

الفصل الثانى

البحترىّ فى عصره

الفصل الثالث

جوانب البحترى

الفصل الرابع

منتخبات من آثار البحترىّ

صفحة

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٩